الفصل الأول

الروتين قبل العاصفة

كانت مركبة الاستكشاف العلمي «الرازي-1» تمخر الفضاء بهدوء يكاد يكون مملًّا.

من نافذة غرفة القيادة الجانبية، بدا كويكب **أدونيس** كنقطة ضوء باهتة تتقدم ببطء شديد نحوهم. لم يكن أكبر من جبل متوسط الحجم على الأرض، لكنه كان الهدف الوحيد لهذه الرحلة الروتينية التي استمرت ثلاثة أسابيع حتى الآن.

جلس الدكتور عمر شوكت في مقعده المائل قليلاً إلى الخلف، يحدّق في الشاشة الرئيسية دون أن يرمش. كانت عيناه الرماديتان محاطتين بهالات خفيفة من الإرهاق، وشعره الفضي القصير يتلألأ تحت الإضاءة الباردة للمقصورة. مرّر إصبعه على لوحة التحكم، فظهرت بيانات الكويكب مرة أخرى:

- القطر التقريبي: 1.8 كيلومتر

- التركيب: صخري-معدني مع نسبة عالية من الحديد والنيكل

- المسار: مستقر بين المريخ والمشتري

همس لنفسه بصوت خافت:

«أدونيس... إله الجمال الذي مات ثم عاد. يا لها من مفارقة».

خلفه مباشرة، كان صوت ابنه شريف يعلو قليلاً وهو يجادل أخته:

ـ قلتِ لكِ مئة مرة إن نسبة الأكسجين في العينات السابقة من كويكبات مشابهة لا تتجاوز 0.3٪. لا يمكن أن تكون هناك حياة داخلية!

نانسي، ذات الأربعة عشر ربيعًا، هزت رأسها بسخط وهي تجلس القرفصاء أمام لوحة تحكم ثانوية أصغر:

ـ وأنت قلتَ مئة مرة إنك لا تؤمن بالاحتمالات المستحيلة. ثم ماذا عن تلك الإشارة الضعيفة التي التقطناها أمس؟ هل نتجاهلها لأنها «مستحيلة»؟

شريف، أطول منها بقليل وأكثر هدوءًا في الظاهر، دفع نظارته الطبية إلى أعلى أنفه وقال بصوت عالم صغير:

ـ الإشارة كانت تشويشًا شمسيًا. الكمبيوتر أكّد ذلك.

ـ الكمبيوتر يقول ما نطلب منه أن يقوله ـ ردّت نانسي بحدة ـ أما أنا فأرى ما أراه.

من زاوية المقصورة، ابتسم الرائد أيمن فتحي ابتسامة خفيفة وهو يراجع قراءات أنظمة الدفع. كان الرجل في منتصف الثلاثينيات، ذو وجه حاد الملامح وشعر أسود قصير، ويرتدي الزي الفضائي الرمادي الفاتح بسحّاب نصف مفتوح عند الرقبة. راقب المشادة بين الأخوين لبعض لحظات ثم قال بصوت هادئ يقطع الجدال:

ـ لو سمحتما... الكويكب على بُعد ست ساعات فقط بسرعة الاقتراب الحالية. الأفضل أن نوفر الطاقة العصبية لما بعد الهبوط.

نظر إليه الدكتور عمر نظرة تقدير صامتة. كان أيمن الرجل العملي الوحيد على المركبة، والجندي السابق الذي لم يتحدث قط عن أيامه في القوات الفضائية إلا نادرًا.

رفع عمر يده قليلاً وقال:

ـ نانسي... شريف... يكفي. راجعا معًا بيانات الإشارة مرة أخرى بعد العشاء. أما الآن فلنكمل الفحوصات الروتينية.

سكنت المقصورة نسبيًا. لم يكن هناك سوى الطنين الخفيف لأنظمة التهوية، وصرير المقاعد حين يتحرك أحدهم، وضوء الشاشات الأزرق الذي ينعكس على وجوههم.

في الداخل، كان عمر يفكر في شيء آخر تمامًا.

منذ أن غادروا السفينة الأم قبل ثلاثة أسابيع، وهو يشعر بثقل غريب في صدره. ليس خوفًا من المهمة... بل شعورًا قديمًا بأنه يقترب من شيء كان يحاول نسيانه منذ سنوات طويلة. مشروع «البُعد الرابع» الذي شارك فيه في شبابه، ثم أُغلق فجأة ودُفن تحت طبقات من السرية. كلما نظر إلى كويكب أدونيس، شعر أن الاسم نفسه يسخر منه.

نظر إلى ابنيه من طرف عينه.

شريف كان يقلّد طريقته في التفكير خطوة بخطوة: يجمع المعلومات، يضع البدائل، يدرسها، ثم يقرر. أما نانسي فكانت أقرب إلى والدتها الراحلة... حدس قوي وفضول لا يعرف الخوف.

ابتسم عمر ابتسامة حزينة خفيفة. لو علمت أمهما أنهما يقضيان معظم سنوات مراهقتهما في الفضاء بدلًا من المدارس الأرضية، لضحكت ثم وبّخته برفق.

فجأة، أصدر جهاز المراقبة صوت تنبيه خافتًا.

رفع أيمن رأسه بسرعة:

ـ تشويش طفيف في الإشارات القادمة من السفينة الأم. ربما عاصفة شمسية بعيدة.

نظر عمر إلى الشاشة. النقطة التي تمثل أدونيس كانت ما تزال مستقرة... لكنها بدت له في تلك اللحظة أقرب مما ينبغي.

همس دون أن يدري أنه يتكلم بصوت مسموع:

ـ ستة ساعات فقط...

ثم أضاف بصوت أدنى:

ـ وبعدها... الله أعلم.

في الخلف، كانت نانسي ما تزال تحدّق في البيانات القديمة للإشارة الغامضة، وشريف يكتب ملاحظات على لوحة إلكترونية صغيرة، وأيمن يفحص أنظمة الاتصال مرة بعد مرة.

لم يكن أحد منهم يعلم أن الروتين الذي يعيشونه منذ أسابيع...

كان على وشك أن ينتهي إلى الأبد.

هل تريد أن أكتب **الفصل الثاني** مباشرة (الانفجار)، أم تعدّل شيئًا في هذا الفصل أولًا؟

الفصل الثاني

الانفجار

حدث كل شيء في أقل من ثلاث ثوانٍ.

في اللحظة الأولى كان كويكب أدونيس ما يزال نقطة ضوء هادئة على الشاشة الرئيسية، وفي اللحظة التالية تحول إلى كرة نار بيضاء مبهرة ابتلعت نصف السماء أمامهم.

لم يصدر أي تحذير من الكمبيوتر.

لم تُطلق صفارات الإنذار.

لم يُعطَ أحدهم حتى فرصة للصراخ.

الضوء جاء أولًا... ضوء أبيض نقي وأعمى ملأ المقصورة كلها كأن شمسًا صغيرة انفجرت داخل «الرازي-1». ثم جاءت الموجة الصدمية.

ارتجّت المركبة بعنف وحشي. انقطعت الأحزمة الواقية للحظات قبل أن تشد أجسادهم إلى المقاعد بقوة كافية لتكسر عظامًا لو كانت أقل متانة. سمعت نانسي صوتًا حادًا ككسر عظم، ثم أدركت أنه صوت الكابلات الرئيسية وهي تتمزق تحت الأرضية.

انطفأت الأنوار الرئيسية دفعة واحدة.

اشتعلت أضواء الطوارئ الحمراء والبرتقالية في ومضات متقطعة.

امتلأ الهواء برائحة الأوزون المحروق ورائحة المعدن الساخن.

كان أول من استعاد وعيه هو شريف.

فتح عينيه على عالم يدور. رأسه ينزف من جرح صغير فوق الحاجب الأيمن، وأذناه تطنّان بصوت يشبه صفيرًا بعيدًا لا ينقطع. حاول أن يتحرك فوجد ذراعيه ثقيلتين كأنهما مصنوعتان من الرصاص. نظر حوله ببطء.

أبوه كان منكمشًا على مقعده، رأسه مائل إلى الجانب، الدم يسيل من زاوية فمه.

نانسي كانت معلقة في حزامها بزاوية غريبة، شعرها الأسود يغطي وجهها بالكامل.

أيمن كان ما يزال واعيًا جزئيًا، يحاول أن يمد يده إلى لوحة التحكم بأصابع مرتجفة.

همس شريف بصوت أجشّ لم يعرفه:

ـ أبي...؟

لم يجب أحد.

مرت دقائق طويلة قبل أن يبدأ الآخرون في التحرك. كان الدكتور عمر أول من فتح عينيه بعده. سعل بقوة، ثم تمرّن على التنفس ببطء وهو يتمتم:

ـ ما الذي... حدث؟

فُكّ أحزمة الوقاية بصعوبة. تحرك نحو نانسي أولًا، رفع شعرها عن وجهها برفق، وتأكد أن نبضها منتظم. ثم التفت إلى أيمن الذي كان يضغط على جرح في جبهته بمنديل طارئ.

قال أيمن بصوت مبحوح:

ـ الانفجار... كان من الداخل. الكويكب... انفجر من داخله.

هز عمر رأسه ببطء وهو ينظر إلى الشاشات الميتة:

ـ لا... لم يكن انفجارًا نوويًا تقليديًا. شيء آخر... شيء لم نرَ مثله من قبل.

بدأت نانسي تتحرك أخيرًا. فتحت عينيها الواسعتين ونظرت حولها في رعب صامت، ثم همست:

ـ هل... هل نحن ميتون؟

ابتسم شريف ابتسامة باهتة رغم الألم:

ـ لو كنا موتى لما شعرنا بهذا الصداع اللعين.

نهض أيمن بصعوبة وتوجه نحو جهاز الاتصال الليزري. ضغط على عدة أزرار، ثم أعاد المحاولة، ثم همس بصوت فارغ:

ـ لا شيء... لا رد من السفينة الأم. لا إشارات على الإطلاق. التشويش فقط... تشويش أبيض مستمر.

نظر الجميع إلى الشاشات الخارجية.

كانت الفضاء الخارجي قد عاد أسودًا كما كان دائمًا... لكن شيئًا ما كان مختلفًا.

لم تعد نجوم الخلفية في أماكنها المألوفة.

وكويكب أدونيس... اختفى تمامًا. لم يبقَ منه حتى سحابة الغاز المتوقعة.

قال عمر بصوت منخفض وهو يحدّق في الفراغ:

ـ لم نعد في المكان الذي كنا فيه منذ دقائق.

ساد صمت ثقيل داخل المقصورة.

فقط صوت مرشحات الهواء الاحتياطية كان يملأ الفراغ بطنينها الحاد المزعج.

ثم أضاف عمر، وكأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليهم:

ـ أو... لم نعد في الزمن الذي كنا فيه.

نظرت نانسي إلى أخيها، ثم إلى والدها، ثم إلى أيمن.

وفي عينيها الصغيرة بدأت أول ملامح الرعب الحقيقي تتشكل.

أما شريف، فقد كان يحدّق في لوحة التحكم الثانوية التي ما زالت تعمل جزئيًا، ويهمس بأرقام ومعادلات لنفسه، محاولًا أن يجد تفسيرًا علميًا لما حدث...

قبل أن يدرك أن العلم الذي يعرفه ربما لم يعد كافيًا.

خارج المركبة، كان السواد الفضائي ينتظرهم...

صامتًا، ومجهولًا، ولا نهائيًا.

هل تريد الفصل الثالث مباشرة؟

الفصل الثالث

الكوكب المستحيل

مرت ساعات قبل أن يتمكنوا من استعادة الحد الأدنى من السيطرة على المركبة.

كانت أنظمة الدفع الرئيسية قد تعرضت لأضرار بالغة، لكن المحركات الثانوية ووحدات المناورة ما زالت تعمل. جلست نانسي أمام لوحة التحكم الثانوية، أصابعها تتحرك بسرعة ودقة رغم الارتعاش الخفيف الذي لم يفارقها منذ الانفجار. خلفها وقف شريف يراقب القراءات، بينما كان أيمن يتنقل بين الكابلات المحترقة محاولًا عزل الدوائر التالفة.

أما الدكتور عمر فكان جالسًا في مقعده، ينظر إلى الشاشة الخارجية التي أعيد تشغيلها جزئيًا. كان وجهه شاحبًا، وعيناه ثابتتين على نقطة واحدة في الفراغ.

فجأة رفع صوته:

ـ نانسي... قودي المركبة في دائرة بطيئة. أريد أن نرى ما إذا كان هناك أي شيء في الخارج يمكن رصده.

نفّذت نانسي الأمر دون كلام. دارت «الرازي-1» ببطء شديد، بينما انتقل الباقون من كوة إلى أخرى، يحدقون في السواد اللانهائي.

لم تكن هناك أي إشارة إلى السفينة الأم.

لا ضوء، لا إشارة نداء، لا أثر.

ثم قال شريف فجأة، صوته مرتفع أكثر مما قصد:

ـ أبي... انظر.

كان يقف أمام شاشة التكبير البصري. على الشاشة ظهرت صورة مكبرة لشيء لم يكن ينبغي أن يكون هناك.

كوكب.

غلاف جوي واضح، سحب بيضاء تتحرك ببطء، وتضاريس قارية داكنة تحتها. لم يكن بعيدًا. بحسب القراءات الأولية، كان على بُعد ست ساعات فقط بسرعة متوسطة.

همس أيمن وهو يقترب:

ـ هذا مستحيل... لم نكن بجوار أي كوكب. أدونيس كان في حزام الكويكبات. أقرب كوكب إلينا كان المريخ على بُعد أيام.

هز شريف رأسه ببطء، عيناه لا تفارقان الشاشة:

ـ ومع ذلك... هو موجود. وله غلاف جوي.

أمر عمر بصوت هادئ لكنه حازم:

ـ نانسي، فعّلي أجهزة الاستشعار عن بُعد. أريد قراءة كاملة للغلاف الجوي ودرجة الحرارة.

عملت نانسي بصمت لعدة دقائق. ثم رفعت رأسها، وفي عينيها مزيج غريب من الفرح والخوف:

ـ درجة الحرارة معتدلة... الغلاف الجوي يحتوي على أكسجين وبخار ماء ونيتروجين بنسب قريبة جدًا من نسب الأرض. يبدو أننا... محظوظون.

ساد صمت قصير.

ثم قال عمر:

ـ سنتجه إليه. مهما كان أمره. وأيمن... استمر في إرسال إشارات الاستغاثة. ربما يسمعنا أحد.

بدأت المركبة رحلتها البطيئة الحذرة نحو الكوكب المجهول. كانوا يتحركون بسرعة منخفضة حتى لا يحمّلوا المحركات المتضررة أكثر مما تحتمل. مرت الساعات ببطء قاتل. تحول السواد الخارجي تدريجيًا إلى بنفسجي داكن، ثم إلى أزرق فاتح كلما اقتربوا من الغلاف الجوي.

طلب عمر صورًا أقرب على الشاشة الكبيرة Downstream.

عندما ظهرت الصور الأولى بعد إزالة معظم الغلاف الجوي بواسطة الكمبيوتر الضوئي، انطلقت شهقة جماعية من الحلقوم الأربعة.

هتف أيمن بصوت مبحوح، غير مصدق:

ـ لا... هذا غير ممكن.

كانت القارات واضحة تمامًا.

شكل أفريقيا الشمالية.

البحر الأحمر كخط أزرق رفيع.

جزء من آسيا يظهر عند الحافة الشرقية.

همس شريف وهو يقترب من الشاشة حتى كاد يلمسها:

ـ إنها... الأرض.

نظر الدكتور عمر إلى الصورة لفترة طويلة، ثم قال بصوت منخفض جدًا، كأنه يخشى أن يسمعه أحد غيرهم:

ـ أيمن... نحن بالتأكيد لا نحلم.

التفسير الوحيد المعقول أن انفجار أدونيس أجبرنا بطريقة ما لا نفهمها على الدخول في نوع من البعد الرابع...

أي الزمن.

ودفعنا بقوة... إلى كوكب الأرض.

نظر الجميع إلى الصورة مرة أخرى.

نفس القارات، نفس المحيطات، نفس الشكل الذي حفظوه عن ظهر قلب منذ الطفولة.

لكن شيئًا ما كان مفقودًا.

لا أضواء مدن في الجانب الليلي.

لا أقمار صناعية تدور.

لا إشارات راديو.

لا أثر لأي حضارة بشرية على الإطلاق.

كانت الأرض...

ولكنها لم تكن أرضهم.

هل أكتب الفصل الرابع؟

الفصل الرابع

الفرضية الزمنية

ظلت الصورة معلقة على الشاشة الكبيرة كأنها تتحداهم.

أرض بلا أضواء.

أرض بلا إشارات.

أرض تشبه وطنهم في كل تفصيلة جغرافية... وتختلف عنه في كل شيء آخر.

كان الدكتور عمر أول من كسر الصمت. وقف ببطء، تمسك بحافة المقعد حتى استقرت قدماه على الأرضية المهتزة قليلاً، ثم قال بصوت هادئ لكنه واضح:

ـ استمعوا إليّ جميعًا.

التفت الثلاثة إليه. حتى نانسي أوقفت يديها عن لوحة التحكم.

ـ ما حدث لنا ليس انتقالًا مكانيًا عاديًا. المسافة بين حزام الكويكبات والأرض تُقاس بملايين الكيلومترات. حتى بأقصى سرعة نملكها كان سيستغرق الوصول أيامًا لا ساعات. ومع ذلك نحن هنا... في ساعات قليلة فقط بعد انفجار أدونيس.

توقف لحظة، ثم أضاف:

ـ النظرية النسبية الخاصة لأينشتين تصوّر الكون كمتصل زماني-مكاني رباعي الأبعاد. ثلاثة أبعاد للمكان... وبُعد رابع هو الزمن. إذا تمكّن شيء ما من ثني هذا المتصل أو ثقبه... فمن الممكن نظريًا أن ننتقل عبر الزمن نفسه.

نظر شريف إلى أبيه نظرة طويلة، ثم قال ببطء:

ـ تقصد أننا... سافرنا عبر الزمن؟

ـ أعتقد ذلك. نعم.

قاطعته نانسي بصوت مرتفع أكثر مما قصدت:

ـ إلى أي اتجاه؟ إلى الماضي أم إلى المستقبل؟

هز عمر كتفيه قليلاً:

ـ لا أعرف بعد. لكن غياب أي أثر للحضارة يجعلني أميل إلى الماضي... ربما إلى ما قبل ظهور الإنسان تمامًا.

ضحك أيمن ضحكة قصيرة جافة:

ـ الماضي؟ ونحن نحمل معنا مسدسات إشعاعية وسيارات دفع دوّار ومركبة فضائية؟ هل تتوقع أن نعيش بين الديناصورات يا دكتور؟

نظر إليه عمر بثبات:

ـ أفضل من أن نظل عالقين في مدار ميت بلا اتصال وبلا أمل في الإنقاذ.

ارتفع صوت شريف فجأة، وكان فيه توتر واضح:

ـ لكن هذا جنون! حتى لو افترضنا صحة نظرية البعد الرابع، كيف يضمن لنا أن الهبوط على هذا الكوكب لن يدمرنا؟ الغلاف الجوي قد يكون سامًا بنسب مختلفة، الجاذبية قد تكون مختلفة، الكائنات الدقيقة...

قاطعته نانسي بهدوء هذه المرة:

ـ القراءات تقول إن الغلاف الجوي صالح. والجاذبية قريبة جدًا من جاذبية الأرض. وأجهزة الاستشعار لم ترصد أي إشعاع قاتل حتى الآن.

التفت شريف إليها بغضب مكبوت:

ـ وأنتِ مستعدة أن نراهن بحياتنا على «قريب جدًا»؟

تدخل أيمن قبل أن يتفاقم الجدال:

ـ شريف... ليس لدينا خيارات كثيرة. المحركات لن تصمد إلى ما لا نهاية. الوقود محدود. والطعام والماء أكثر محدودية. إما أن نهبط ونحاول البقاء... أو نموت في المدار ببطء.

ساد صمت ثقيل مرة أخرى.

كان عمر يراقب أبناءه. رأى الخوف في عيني نانسي، والعناد العلمي في وجه شريف، والقبول العملي في ملامح أيمن. تنهد بعمق ثم قال:

ـ سنهبط.

رفع يده قبل أن يعترض أحد:

ـ لكن بحذر شديد. نانسي... ابحثي عن أرض مرتفعة صخرية، بعيدًا عن السهول المنخفضة والغابات الكثيفة قدر الإمكان. أيمن... استمر في بث إشارات الاستغاثة حتى آخر لحظة. شريف... أريدك أن تراقب كل قراءة بيئية لحظة بلحظة أثناء الهبوط. أي تغير غير طبيعي... نوقف كل شيء فورًا.

نظر شريف إلى أبيه لفترة طويلة، ثم أومأ برأسه ببطء. لم يكن موافقًا تمامًا... لكنه لم يعد يجد حجة منطقية للرفض.

بدأت نانسي في ضبط مسار الهبوط الاضطراري. رسم الكمبيوتر مسارًا متعرجًا عبر الغلاف الجوي لتقليل الحرارة والضغط على الهيكل المتضرر. جلس الأربعة في مقاعدهم، وشدّوا الأحزمة مرة أخرى.

بينما كانت المركبة تبدأ هبوطها البطيء، همس شريف لأخته بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إذا كنا فعلًا في الماضي... فلن يجد أحد بقايانا أبدًا.

ردّت نانسي دون أن ترفع عينيها عن الشاشة:

ـ وإذا كنا في المستقبل... فربما يكون الأمر أسوأ.

خارج النوافذ بدأ اللون الأسود يتحول تدريجيًا إلى بنفسجي، ثم إلى أزرق باهت.
وكانت الأرض المجهولة تقترب منهم...
صامتة، وواسعة، ولا تكشف عن أي سر بعد.

هل ننتقل إلى الفصل الخامس؟

الفصل الخامس
أول نفس على أرض غريبة

هبطت «الرازي-1» بهدوء يثير الدهشة.

لم تكن الهبوط مثاليًا... ارتجت المركبة مرتين بعنف، وصرخت أنظمة التعليق الاحتياطية، لكن الهيكل صمد. عندما توقفت المحركات أخيرًا، ساد صمت مطبق داخل المقصورة لعدة ثوانٍ طويلة، كأن أحدًا لا يجرؤ على التنفس.

كان الدكتور عمر أول من فك حزامه.

وقف ببطء، تأكد من قراءة أجهزة البيئة الخارجية مرة أخيرة، ثم قال بصوت خافت:

ـ الأكسجين 20.8٪... الضغط الجوي طبيعي تقريبًا... لا آثار إشعاعية خطرة.

يمكننا الخروج.

فتح باب المركبة الخارجي ببطء. تسربت أولاً رائحة غريبة... تراب مبلل، وأوراق خضراء، وشيء يشبه المطر الذي سقط منذ ساعات. ثم دخل الضوء.

كان ضوء الشمس مختلفًا. أكثر بياضًا وحدة مما اعتادوه في محطات الفضاء أو حتى على الأرض في زمنهم. وقف الأربعة على الحافة المعدنية للباب، ينظرون إلى العالم الجديد دون أن ينزل أحدهم بعد.

تحتهم امتدت هضبة صخرية مرتفعة، تنحدر بلطف نحو سهول خضراء واسعة تتخللها مستنقعات لامعة. في الأفق الشمالي والجنوبي ارتفعت تلال داكنة مغطاة بغابات كثيفة. أما السماء فكانت زرقاء صافية بلا أثر لدخان أو طائرات أو أقمار صناعية.

نزل شريف أولًا.

وضع قدمه على الصخر الرسوبي بحذر، كأن الأرض قد تبتلعه. ثم وضع القدم الثانية. رفع رأسه وتنفس بعمق. امتلأ صدره بالهواء النقي المشبع برائحة الأوزون والنباتات البرية. أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما وقال بصوت منخفض مليء بالدهشة:

ـ إنه... حقيقي.

تبعته نانسي. ركضت خطوات قليلة ثم توقفت فجأة، انحنت، ومررت أصابعها بين أزهار صفراء صغيرة تنبت بين الصخور. رفعت واحدة منها وقال وهي تبتسم لأول مرة منذ الانفجار:

ـ نبات النارديين... أتذكره حول مركز الفضاء في الوادي الجديد. هل ظل موجودًا كل هذه السنين؟

نزل أيمن بعدها، يده على مسدسه الإشعاعي، عيناه تمسحان الأفق باستمرار. لم يتكلم. اكتفى بأن يدور حول المركبة مرة كاملة يتأكد من عدم وجود أي خطر مباشر.

أما الدكتور عمر فكان آخر من نزل. وقف على الصخرة العالية ونظر حوله في دائرة كاملة. ثم قال بصوت هادئ يكاد يكون حالمًا:

ـ تخيلوا هذا... الكوكب بأكمله ملك لنا الآن.

لا حكومات، لا حدود، لا قوانين إلا ما نضعه نحن.

شعور طاغٍ... ومرعب في الوقت نفسه.

ابتسم شريف ابتسامة مائلة وهو يلتقط حجرًا صغيرًا ويفحصه:

ـ أشعر وكأننا حي بن يقظان... لكن على مستوى كوكب كامل.

هز أيمن رأسه وهو ما يزال يراقب الغابة البعيدة:

ـ الفرق أننا لسنا وحدنا على الأرجح. وهناك أشياء هنا أكبر منا بكثير... وأقدم.

جلست نانسي على صخرة مسطحة، تخلع قفازها وتلمس التربة بيدها العارية. همست:

ـ الهواء دافئ... والشمس دافئة... وكأن الأرض ترحب بنا.

لكن ابتسامتها لم تدم طويلًا. رفعت رأسها فجأة ونظرت إلى الأفق الغربي حيث بدأت الشمس تميل قليلًا. قالت بصوت أكثر هدوءًا:

ـ ومع ذلك... أشعر أننا الغرباء هنا.

كأننا دخلنا بيتًا ليس لنا... وصاحبه لم يعد موجودًا.

نظر عمر إلى ابنته نظرة طويلة، ثم أومأ برأسه ببطء.

كان يعرف ما تقصده.

هذا العالم الجميل الهادئ... كان يحمل في طياته عزلة مطلقة.

لا نداء استغاثة سيصل إلى أحد.

لا سفينة إنقاذ ستأتي.

ولا زمنهم القديم كان ينتظرهم على الجانب الآخر من السماء.

وقف الأربعة في صمت على تلك الهضبة الصخرية، تحت سماء زرقاء صافية، محاطين بعالم يبدو بكرًا وكأنه خُلق منذ ساعات فقط.

ولأول مرة منذ انفجار أدونيس، شعروا جميعًا بالحقيقة الثقيلة نفسها:

لقد هبطوا.

وهم هنا ليبقوا...

إلى أجل غير مسمى.

هل نكمل بالفصل السادس؟

الفصل السادس

التيروداكتيل

كان الهدوء قد بدأ يخدعهم.

جلس الأربعة في ظل جناح المركبة، يتناولون كبسولات الغذاء الطارئ ويشربون الماء المقطر من أجهزة إعادة التدوير. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، والحرارة

معتدلة، والنسيم يحمل رائحة الأعشاب الرطبة. للحظة قصيرة بدت الحياة ممكنة... بل شبه طبيعية.

ثم جاء الصوت.

صرخة حادة، طويلة، مبحوحة، انطلقت من أعماق الغابة الشمالية وقطعت الصمت كسكين. رفع الأربعة رؤوسهم في وقت واحد. ترددت الصرخة مرة ثانية، أقرب هذه المرة، ثم تحولت إلى سلسلة من الأصوات المتداخلة كأن عشرات الحناجر تصرخ معًا.

نهض أيمن أولًا، مسدسه في يده، عيناه تمسحان خط الأشجار البعيد. همس:

ـ شيء كبير... ومتعدد.

فجأة انشقّت قمم الأشجار العالية.

ارتفعت أجسام داكنة كبيرة إلى السماء واحدًا تلو الآخر. أجنحة غشائية ضخمة تمتد وتضرب الهواء بقوة، أعناق طويلة تنتهي برؤوس مدببة ذات مناقير حادة، وأعين صغيرة لامعة. حلّقت المخلوقات في دوائر واسعة فوق الغابة، ثم اقترب بعضها من الهضبة التي يقفون عليها.

شهق شريف شهقة طويلة مكتومة، ثم همس بصوت مملوء بالدهشة أكثر من الخوف:

ـ تيروداكتيل... طيور التيروداكتيل!

إنها حقيقية... أنا أراها أمامي!

كانت نانسي قد وقفت إلى جانبه، عيناها واسعتان جدًا. قالت بصوت مرتجف لكنه مملوء بإثارة علمية لا تُخفى:

ـ هذا يعني أننا في العصر الطباشيري... أو قريب منه. العصر الذي انقرضت فيه الديناصورات منذ أكثر من ستين مليون سنة.

نظر إليها أبوها نظرة سريعة، ثم عاد يراقب المخلوقات المجنحة. كانت تحلق الآن على ارتفاع منخفض فوق السهل، ظلالها الضخمة تمر على الأرض كغيوم سوداء سريعة.

قال أيمن بصوت خشن وهو لا يزال يمسك المسدس:

ـ سواء كانت طباشيرية أو غير ذلك... فهي كبيرة بما يكفي لتمزيق إنسان إربًا. ويبدو أنها لاحظتنا.

بالفعل، انفصل اثنان من السرب وحلقا في دائرة أضيق فوق المركبة. أصدر أحدهما صرخة حادة كأنه ينادي البقية. شعر الجميع بقلوبهم تتسارع.

قال الدكتور عمر بسرعة:

ـ لا تطلقوا النار إلا إذا هاجموا. نحن لا نعرف سلوكها بعد، ولا نريد أن نثير السرب كله.

وقفت المخلوقات تحلق فوقهم لعدة دقائق طويلة بدت كساعات. ثم، فجأة، انصرفت كلها واتجهت نحو الشرق، تاركة السماء فارغة مرة أخرى إلا من بعض السحب البيضاء الخفيفة.

تنفس الجميع الصعداء في وقت واحد.

مسح شريف العرق عن جبهته وقال وهو لا يزال يحدق في الأفق:

ـ علماء الحفريات كانوا يسمونها «التنين الطائر». لم أكن أتصور أنني سأراها حية... وأنا على قيد الحياة.

ابتسمت نانسي ابتسامة باهتة:

ـ ولا أنا. لكن هذا يؤكد شيئًا واحدًا على الأقل... نحن لسنا في عصر الإنسان.

هز عمر رأسه ببطء، ثم التفت إلى المركبة وقال بصوت عملي:

ـ حسنًا. الآن نعرف أن هناك حياة كبيرة هنا، وأنها قادرة على الطيران.

حان وقت الاستكشاف المنظم.

فتح باب مخزن البضائع في الجزء الخلفي من «الرازي-1». أنزل سيارتين صغيرتين برمائيتين تعملان بالدفع الدوّار الدائم، لونهما رمادي معدني، ومصممتان للتنقل في التضاريس الوعرة. ثم أخرج أربعة مسدسات إشعاعية كهرومغناطيسية ووزعها عليهم.

قال وهو يسلم المسدس الأخير لأيمن:

ـ أنا وأيمن سنأخذ السيارة «ألفا». أنتما — شريف ونانسي — خذا «بيتا». نبقى على اتصال مستمر بوحدات الليزر. أي خطر... تعودون فورًا إلى المركبة. مفهوم؟

أومأ الجميع.

بينما كانوا يجهزون السيارات، نظر شريف إلى الأفق الشمالي حيث اختفت التيروداكتيلات، وهمس لأخته:

ـ إذا كانت هذه مجرد البداية... فماذا ينتظرنا في الغابة؟

ردت نانسي وهي تضبط حزام المسدس حول خصرها، صوتها هادئ لكنه يحمل رعدة خفيفة:

ـ أشياء أكبر...

وأسنان أطول.

وفي تلك اللحظة، من بعيد جدًا في أعماق الغابة، جاء صوت آخر.

أعمق.

أثقل.

وكأنه يهز الأرض نفسها.

نظر الأربعة بعضهم إلى بعض في صمت.

ثم صعدوا إلى السيارتين، وبدأت عجلات الدفع الدوّار تدور ببطء على الصخور.

كانت رحلتهم الحقيقية... قد بدأت للتو.

هل نتابع بالفصل السابع؟

الفصل السابع

النهر والسمك

انطلقت السيارتان الصغيرتان فوق المنحدر الصخري بحذر.

كانت «ألفا» تتقدم أولًا، يقودها أيمن بينما يجلس الدكتور عمر إلى جواره يراقب القراءات البيئية على شاشة محمولة. خلفهما جاءت «بيتا»، يقودها شريف ونانسي تجلس في المقعد المجاور، عيناها لا تفارقان الأفق.

بعد أقل من نصف ساعة وصلوا إلى نهر صغير يجري بين الهضبة والغابة. كان الماء صافيًا إلى درجة مدهشة، ينعكس فيه ضوء الشمس كأنه زجاج سائل. توقفت السيارتان على الضفة الصخرية المرتفعة.

نزل شريف ونانسي أولًا. اقتربا من حافة الماء بخطوات بطيئة. انحنت نانسي ونظرت إلى الأعماق الضحلة، ثم هتفت بصوت مملوء بالمفاجأة:

ـ انظر... أسماك!

كانت أجسام فضية متوسطة الحجم تسبح في مجموعات صغيرة، تتحرك بخفة بين الحصى الملون في القاع. رفع شريف حاجبيه وهو يراقبها باهتمام علمي خالص:

ـ تشبه أسماك زمننا إلى حد كبير. كنت أتوقع أنواعًا منقرضة... ضخمة... ذات دروع عظمية مثل تلك التي عاشت في العصر الديفوني. لكن هذه... عادية تقريبًا.

ابتسمت نانسي وهي تُخرج جهاز تحليل صغير من حقيبتها وتُسقط مجسًا رفيعًا في الماء:

ـ الأكسجين المذاب مرتفع، لا توجد مواد سامة ظاهرة. يبدو أن بإمكاننا صيدها لاحقًا إذا احتجنا.

من السيارة الأخرى نزل عمر وأيمن. وقف الأب على حافة الصخرة العالية ونظر إلى النهر ثم إلى الغابة الكثيفة خلفه. قال بصوت هادئ:

ـ الماء يعني حياة. والسمك يعني طعامًا. هذا يغير الحسابات.

أومأ أيمن وهو لا يزال ممسكًا بمسدسه، عيناه تمسحان الأشجار باستمرار:

ـ بشرط ألا يكون هناك ما هو أكبر يعيش في هذا النهر... أو يأتي إليه للشرب.

ضحكت نانسي ضحكة خفيفة قصيرة:

ـ أنت متشائم دائمًا يا أيمن.

ـ أنا واقعي ـ ردّ بسرعة ـ في عالم كهذا، التشاؤم ينقذ الأرواح.

جلس شريف على صخرة مسطحة قرب الماء، أخرج لوحة إلكترونية صغيرة وبدأ يسجل ملاحظات. كان يبدو مسترخيًا أكثر من أي وقت مضى منذ الانفجار. قال وهو يكتب:

ـ إذا استمرت الأمور على هذا النحو... فقد نتمكن من البقاء أشهرًا طويلة. ماء نظيف، أسماك، نباتات صالحة للأكل على الأرجح، ومناخ معتدل.

رفعت نانسي رأسها من الجهاز ونظرت إليه بابتسامة جانبية:

ـ أراك بدأت تستمتع بالحياة الجديدة يا أخي.

ابتسم شريف دون أن يرفع عينيه عن اللوحة:

ـ لا أستمتع... لكنني أتكيف. وهذا أفضل من الذعر المستمر.

مرت دقائق هادئة. صوت خرير الماء كان يملأ المكان، مع نسيم خفيف يحرك أوراق الأشجار البعيدة. للحظة بدت فكرة البقاء على هذا الكوكب أقل رعبًا مما كانت عليه في الصباح.

ثم قال الدكتور عمر فجأة، وهو ينظر إلى الغابة:

ـ لا تبتعدا كثيرًا. نبقى في مدى الرؤية. وأيمن... دعنا نفحص الضفة المقابلة بسرعة.

انطلق الرجلان في «ألفا» عبر جزء ضحل من النهر، بينما بقي شريف ونانسي على الضفة الأولى. جلست الفتاة بجانب أخيها، تتأرجح قدماها فوق سطح الماء دون أن تلمسه.

همست بعد صمت قصير:

ـ هل تعتقد أننا سنعود يومًا؟

نظر إليها شريف نظرة طويلة، ثم هز رأسه ببطء:

ـ لا أعرف. لكن إذا لم نعد... فعلى الأقل لن نموت من الجوع أو العطش بسرعة.

ابتسمت نانسي ابتسامة حزينة صغيرة:

ـ هذا يُعتبر تقدمًا هائلًا في نظرك إذن؟

ـ في عالم كهذا... نعم.

في تلك اللحظة مرّ ظل كبير فوقهما.

رفعا رأسيهما بسرعة. كان أحد التيروداكتيلات يحلق عاليًا فوق النهر، يراقب ربما، ثم انصرف نحو الغابة مرة أخرى.

شعر الاثنان بقشعريرة خفيفة تسري في ظهرهما.

حتى في أكثر اللحظات هدوءًا...

كان هذا العالم يذكّرهما بأنه ليس مكانًا للبشر.

ومع ذلك، جلسا هناك بضع دقائق إضافية، يستمعان إلى خرير الماء ويراقبان الأسماك الفضية تسبح في ضوء الشمس، كأنهما يحاولان التمسك بآخر شعور زائف بالأمان قبل أن ينكسر إلى الأبد.

هل ننتقل إلى الفصل الثامن (المواجهة مع التي-ريكس)؟

الفصل الثامن

التي-ريكس

لم يدم الهدوء أكثر من عشر دقائق.

كان شريف ما يزال يكتب ملاحظاته، ونانسي تراقب الأسماك، عندما شعرت الفتاة فجأة باهتزاز خفيف في الصخرة تحتها. رفعت رأسها بسرعة. الاهتزاز تكرر... أقوى هذه المرة. كأنه خطوات ثقيلة تقترب من بعيد.

همست:

ـ شريف...

لكنه كان قد شعر به أيضًا. أغلق اللوحة الإلكترونية ووقف ببطء، يده تنزلق نحو المسدس الإشعاعي على جنبه.

من الغابة خلفهما جاء صوت تحطم أغصان كبيرة. ثم ظهر الشيء.

خرج من بين الأشجار العملاقة كأنه جبل يمشي. جسد هائل مغطى بجلد خشن داكن، قوائم خلفية ضخمة تهز الأرض مع كل خطوة، ذراعان أماميتان صغيرتان نسبيًا تنتهيان بمخالب حادة، ورأس ضخم كقبر مقلوب يرتفع على عنق قصير قوي. فكاه كانا مفتوحين جزئيًا، يكشفان صفوفًا من أسنان طويلة كالخناجر، اللامعة في ضوء الشمس.

همس شريف بصوت مبحوح يكاد لا يُسمع:

ـ تيرانوصور... تيرانوصور ركس.

كانت المسافة بينهما أقل من خمسين مترًا.

لم يصرخ أحد. لم يكن هناك وقت للصراخ.

قفز شريف نحو السيارة «بيتا» وهو يجر أخته معه. صعدت نانسي بصعوبة، بينما أدار هو أنظمة الدفع بأقصى سرعة. انطلقت العجلات الدوّارة على الصخور ثم نزلت إلى الماء بسرعة جنونية.

خلفهما زأر الديناصور زئيرًا هزّ الهواء كله. ركض نحو النهر بخطوات واسعة مرعبة، الماء يتطاير حوله كالمطر. كان أسرع مما تخيلوا.

صرخت نانسي وهي تطلق طلقتين مرتعشتين من مسدسها نحو المخلوق. أصابت إحدى الطلقات كتفه لكنها لم تفعل أكثر من إغضابه. زأر مرة أخرى واقترب أكثر.

كان شريف يقود بتركيز يائس. السيارة البرمائية تنزلق فوق سطح الماء بسرعة قصوى، لكن الديناصور كان يضيق المسافة. شعر الشاب بقلبه يكاد ينفجر من صدره. فجأة انزلق نصف جسم نانسي من جانب المقعد المفتوح بسبب الاهتزاز العنيف. أمسكها شريف بيد واحدة بقوة يائسة وجذبها إلى الداخل، بينما فقد مسدسه في اللحظة نفسها وسقط في الأدغال على الضفة.

ـ أمسكي! ـ صاح بها.

كانت الضفة المقابلة تقترب. رأى شقًّا ضيقًا في الصخور النارية المرتفعة على اليمين. صرخ:

ـ هناك! إذا دخلنا الشق لن يستطيع متابعتنا!

دار بالسيارة في آخر لحظة واندفع نحو الفتحة الضيقة بين الصخور. خلفهما كان الديناصور على بُعد أمتار قليلة فقط. شعروا برائحته... رائحة لحم نيء ودم وتراب.

انحشرت «بيتا» داخل الشق بصعوبة بالغة. اصطدمت الجوانب المعدنية بالصخر فأرسلت شررًا. توقف الديناصور خارج الفتحة، يحاول أن يدخل رأسه الضخم فلم يستطع. زأر غاضبًا وطرق الصخر بمخلبه الأمامي عدة مرات حتى تساقطت حجارة كبيرة حول المدخل، ثم ابتعد أخيرًا بخطوات ثقيلة وهو يزمجر.

داخل الشق الضيق ساد صمت مطبق إلا من صوت أنفاسهما المتسارعة وصوت المحرك وهو يهدم.

كان شريف ما يزال ممسكًا بيد أخته بقوة. شعر أن أصابعه ترتجف بلا توقف. نظرت إليه نانسي، وجهها شاحب تمامًا، وعيناها ممتلئتان بالدموع التي رفضت أن تسقط.

همست بصوت مكسور:

ـ كنا... سنموت.

أومأ هو برأسه فقط. لم يستطع الكلام بعد.

خارج الشق، كان زئير الديناصور يبتعد تدريجيًا ثم اختفى. لكن الاثنين لم يتحركا من مكانهما لعدة دقائق طويلة. كانا يعرفان أن الأمان الذي يشعران به الآن...

ليس سوى أمان مؤقت وهش.

وبعد قليل، عندما استطاع شريف أخيرًا أن يلتقط أنفاسه، همس وهو ينظر إلى الظلام داخل الشق:

ـ يجب أن نبني منزلنا...

مثل قلعة.

وإلا فلن نعيش طويلًا هنا.

كانت يد نانسي ما تزال ترتجف في يده.

ولم يتركها.

هل نكمل بالفصل التاسع (اكتشاف البلاستيك وبطاقات 2412)؟

الفصل التاسع

البلاستيك والمستحيل

ظلا داخل الشق الصخري أكثر من ساعة كاملة.

لم يجرؤا على الخروج حتى تأكدا أن صوت الديناصور قد اختفى تمامًا، وحتى جاءهما صوت أيمن عبر جهاز الاتصال الليزري يبحث عنهما بقلق شديد. رد شريف بصوت أجشّ وشرح ما حدث بسرعة. بعد قليل وصلت «ألفا» إلى فوهة الشق.

عندما خرج شريف ونانسي أخيرًا إلى الضوء، كان وجهاهما ما يزالان شاحبين. عانقهما الدكتور عمر بقوة صامتة، بينما كان أيمن يفحص السيارة المتضررة ويبحث عن المسدس المفقود دون جدوى.

قال عمر بعد أن اطمأن عليهما:

ـ نعود إلى المركبة فورًا. لا مزيد من الاستكشاف اليوم.

لكن نانسي توقفت فجأة. كانت عيناها مثبتتين على شيء نصف مدفون في التراب والحجارة الصغيرة عند مؤخرة الشق، في المكان الذي احتموا فيه.

انحنت ببطء، وبدأت تزيل الحجارة بأصابعها. بعد لحظات رفعت شيئًا رفيعًا لامعًا بين يديها.

كان قطعة من البلاستيك.

بلاستيك شفاف مكسور، حافته غير منتظمة، وعليه بقايا طباعة باهتة.

شهقت نانسي شهقة طويلة، ثم همست وهي تنظر إلى القطعة كما لو كانت ترى شبحًا:

ـ شريف... تعال انظر إلى هذا.

اقترب شريف بسرعة. أخذ القطعة من يدها، قلبها بين أصابعه، ثم رفع عينيه إلى أخته في ذهول مطلق.

ـ لم يكن هناك بلاستيك... في عصور ما قبل التاريخ.

بدأ الاثنان يحفران في التراب المحيط بحماس محموم. بعد دقائق أخرجا مجموعة صغيرة من البطاقات البلاستيكية السميكة، معظمها مكسور أو متآكل، لكن بعضها ما زال مقروءًا جزئيًا.

كانت بطاقات هوية شخصية.

حملت إحداها صورة باهتة لرجل، واسمًا غير واضح، وشعارًا يشبه تاجًا وقلعة داخل مثلث. وفي أسفل البطاقة، بخط واضح رغم التآكل:

يونيو 2412 ميلادية

تجمد الجميع في أماكنهم.

أخذ الدكتور عمر البطاقة بيد مرتجفة، قرأ التاريخ مرة، ثم مرتين، ثم رفع رأسه ببطء ونظر إلى أبنائه وكأنه يراهم لأول مرة.

قالت نانسي بصوت ضعيف جدًا، يكاد يكون همسًا:

ـ نحن لسنا في الماضي إذن...

ساد صمت ثقيل كالصخر. ثم أردفت بصوت أقوى قليلًا، لكنه كان مكسورًا من الداخل:

ـ نحن في المستقبل.

الحضارة البشرية... دُمرت.

بسبب الحروب المرعبة... وعادت الأرض إلى المخلوقات الأولى.

الديناصورات... والتيروداكتيل...

سقطت البطاقة من يد عمر على التراب. لم يلتقطها أحد.

كان أيمن يقف جامدًا، وجهه حجري، عيناه تحدقان في الأفق البعيد كأنهما تبحثان عن إجابة مستحيلة. أما شريف فقد جلس على أقرب صخرة، يمسك رأسه بيديه، ويكرر بهدوء مجنون:

ـ 2412... 2412... بعد أكثر من ثلاثمئة وسبعين سنة من زمننا...

رفع عمر رأسه أخيرًا. كان وجهه شاحبًا كالموت، لكن صوته جاء ثابتًا بشكل غريب:

ـ هذا يفسر كل شيء.

غياب الإشارات... غياب المدن... وجود هذه المخلوقات.

نحن لسنا في العصر الطباشيري.

نحن في عالم ما بعد الإنسان.

نظر إلى المركبة البعيدة على الهضبة، ثم إلى الغابة الكثيفة، ثم إلى السماء الصافية التي لم تعد تبدو بريئة.

همس، وكأن الكلمات تخرج منه رغمًا عنه:

ـ الحضارة التي صنعناها... انتهت.

ونحن... الناجون الوحيدون الذين يعرفون أنها وُجدت يومًا.

جلست نانسي على الأرض، تسند ظهرها إلى الصخرة، وعيناها فارغتان.

شريف لم يعد يتكلم.

وأيمن أخرج مسدسه ببطء وراح يفحصه، كأن السلاح هو الشيء الوحيد الذي ما زال مفهومًا في هذا العالم الجديد.

فوقهم كانت الشمس تميل نحو الغروب، تلقي بظلال طويلة على الهضبة الصخرية.

وفي مكان ما بعيد داخل الغابة، زأر شيء ضخم مرة أخرى...

كأن الأرض نفسها كانت تذكرهم بأنها لم تعد ملكًا للبشر.

وأن الزمن الذي جاؤوا منه...

قد مات منذ زمن طويل.

بهذا ينتهي **الجزء الأول: السقوط**.

هل تريد أن نبدأ الآن **الجزء الثاني** بالفصل العاشر؟

الفصل العاشر

قاعدة الرازي

عادت السيارتان إلى الهضبة الصخرية قبل غروب الشمس بقليل.

لم يتكلم أحد طوال الطريق. كانت البطاقات البلاستيكية وقطعة البلاستيك المكسورة موضوعة في صندوق صغير بين مقعدي «ألفا»، كأنها جثة صغيرة يرفض الجميع النظر إليها مباشرة. عندما توقفت المركبتان بجانب «الرازي-1»، نزل الأربعة في صمت ثقيل ودخلوا إلى داخل المركبة كأنهم يعودون إلى القبر الوحيد الذي يعرفونه.

أضاء الدكتور عمر الأنوار الداخلية الخافتة، ثم قال بصوت هادئ لكنه قاطع:

ـ من هذه اللحظة... المركبة ليست مركبة استكشاف.

هي قاعدتنا. منزلنا. قلعتنا.

وكل ما عداها ثانوي.

نظر إلى كل واحد منهم على حدة.

ـ أيمن... أنت المسؤول عن الدفاع والأمن. أريد محيطًا آمنًا حول المركبة قبل حلول الظلام. أي حركة غير طبيعية... تُبلغ فورًا.

شريف... أنت المسؤول عن الأنظمة والطاقة والمخزون. راجع كل شيء: الوقود، الطعام، الماء، الأكسجين الاحتياطي، قطع الغيار. أريد تقريرًا كاملًا خلال ساعتين.

نانسي... أنتِ المسؤولة عن البيئة والمراقبة الخارجية. فعّلي كل أجهزة الاستشعار المتاحة، وربطها بنظام إنذار مبكر. أي تغيّر في الحرارة أو الحركة أو الأصوات... نعرفه قبل أن يصل إلينا.

وأنا... سأحاول فهم ما حدث لنا بالضبط. وكيف نجا من هذا المكان... إن كان هناك نجاة أصلًا.

لم يعترض أحد.

خرج أيمن فورًا ومعه صندوق الأسلحة والأضواء الكاشفة. بدأ يزرع مستشعرات حركة صغيرة حول المحيط على مسافة خمسين مترًا، ويربطها بشبكة لاسلكية داخل

المركبة. شريف انغمس في لوحات التحكم وأنظمة الطاقة، وجهه مضاء بالضوء الأزرق للشاشات. أما نانسي فجلست أمام محطة المراقبة، تربط الكاميرات الحرارية وأجهزة الرادار القصير المدى، عيناها لا تفارقان الشاشات.

مع غروب الشمس تحولت السماء إلى برتقالي داكن ثم إلى بنفسجي ثم إلى أسود حالك. لم تكن هناك أضواء مدن في الأفق. لا نجوم صناعية. فقط النجوم الحقيقية البعيدة... ونقيق غريب يأتي من الغابة، وزئير بعيد متقطع يهز الصدر من الداخل.

كانت أول ليلة لهم على هذه الأرض.

أوقدوا مصباحًا واحدًا خافتًا داخل المقصورة الرئيسية حتى لا يجذبوا انتباه أي شيء من الخارج. جلسوا على الأرض في دائرة صغيرة، يتناولون كبسولات الطعام الباردة في صمت. كان طعمها معدنيًا أكثر من المعتاد.

فجأة أصدر جهاز الإنذار صوتًا قصيرًا حادًا.

قفز أيمن إلى محطة المراقبة في جزء من الثانية. نظر إلى الشاشة الحرارية ثم همس:

ـ شيء كبير... على بُعد ثلاثمئة متر شمالًا. يتحرك ببطء موازٍ لمحيطنا. لا يقترب.

ظل الجميع ممسكين أنفاسهم لعدة دقائق. ثم اختفى الكائن الحراري خلف التلال.

تنهدت نانسي بصوت مسموع. قال شريف وهو يفرك عينيه:

ـ سنحتاج إلى سور. سور حقيقي. وربما خندق. وربما ألغام إذا وجدنا طريقة لصنعها.

هز عمر رأسه ببطء:

ـ غدًا نبدأ. الليلة... نبقى يقظين بالتناوب. ساعتان لكل منا. لا أحد ينام نومًا عميقًا.

نظر إلى أبنائه في الضوء الخافت. كان وجه شريف شاحبًا ومتوترًا، ووجه نانسي يبدو أكبر من عمرها بسنوات. أما أيمن فكان جالسًا وظهره إلى الجدار، مسدسه في حجره، عيناه مفتوحتان كعيني صقر.

قال عمر بصوت أخف هذه المرة:

ـ نحن الأربعة فقط.

لا أحد قادم لإنقاذنا.

ولا زمننا السابق ينتظرنا.

إما أن نتحول إلى قلعة... أو نصبح طعامًا لشيء يزأر في الظلام.

خارج المركبة كان الظلام كثيفًا ومطلقًا.

وفي مكان ما بعيد، جاء زئير آخر... أطول وأعمق من السابق.

كأن الليل نفسه كان يعلن أن هذا العالم لم يعد يتسع للبشر إلا إذا قاتلوا من أجله كل ليلة.

وأول ليلة...

كانت قد بدأت للتو.

هل نتابع بالفصل الحادي عشر؟

الفصل الحادي عشر

ذنب الأب

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل عندما استيقظ شريف ليأخذ نوبته في الحراسة.

وجد أباه جالسًا وحده أمام الشاشة الرئيسية، الضوء الأزرق الخافت ينعكس على وجهه المتعب. لم يكن يراقب المحيط الخارجي. كان يحدق في ملف قديم فتحه من ذاكرة المركبة الشخصية، ملف مشفر بعنوان باهت:

مشروع أورفيوس – سري للغاية

جلس شريف إلى جواره دون أن يتكلم. بعد دقيقة طويلة قال عمر بصوت خافت، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ ساعات:

ـ هل تتذكر عندما كنت صغيرًا... وسألتك مرة ماذا تفعل لو استطعت السفر عبر الزمن؟

أومأ شريف ببطء.

ـ قلتَ لي يومها: «أذهب إلى المستقبل لأرى إن كنا سننجح أم نفشل».

ضحكتُ وقتها. لكنني كنت أعرف الإجابة بالفعل... أو كنت أظن أنني أعرف.

أغلق عمر الملف بيده، ثم التفت إلى ابنه. كانت عيناه محمرتين من قلة النوم والذنب القديم.

ـ قبل سبعة وعشرين عامًا... كنت جزءًا من مشروع سري جدًا. أسموه «أورفيوس». الهدف الرسمي كان دراسة إمكانية التأثير على المتصل الزماني-المكاني باستخدام طاقة عالية التركيز. الهدف الحقيقي... كان محاولة ثني الزمن نفسه.

سكت لحظة، ثم أضاف بصوت أجش:

ـ عملنا على كويكبات صغيرة في مختبرات مدارية بعيدة. أدونيس كان أحد المواقع التجريبية القديمة. لم ننجح في شيء ذي قيمة... أو هذا ما قيل لنا عندما أُغلق المشروع فجأة ودُفن تحت طبقات من السرية. أُجبرنا جميعًا على توقيع تعهدات بالصمت مدى الحياة. وأنا... صمتُّ.

دخل أيمن في هذه اللحظة ليتسلم نوبته، لكنه توقف عند الباب عندما سمع الكلام. خلفه ظهرت نانسي أيضًا، وقد أيقظها صوت أبيها. وقف الثلاثة ينظرون إلى عمر في صمت ثقيل.

قالت نانسي بصوت صغير مكسور:

ـ تقصد... أن ما حدث لنا... قد يكون بسبب شيء عملتَ عليه أنت؟

هز عمر رأسه ببطء، لكنه لم ينفِ.

ـ لا أعرف. ربما بقيت بقايا من التجربة القديمة داخل أدونيس. ربما تفاعلت مع شيء آخر. ربما كان الانفجار مجرد صدفة كونية. لكنني لا أستطيع أن أتجاهل الاحتمال... أن يدي كانت من بين الأيدي التي لمست هذا الباب أول مرة.

ارتفع صوت شريف فجأة، وكان فيه غضب مكبوت منذ ساعات:

ـ ولماذا لم تخبرنا؟ طوال الرحلة... طوال السنوات التي قضيناها معك في الفضاء... كنت تحمل هذا السر؟

نظر عمر إلى ابنه نظرة طويلة مؤلمة.

ـ لأنني أقسمت. ولأنني ظننت أن المشروع مات ودفن. ولأنني... كنت خائفًا من أن أنقل إليكما عبئًا لا تستحقانه.

ضحك أيمن ضحكة قصيرة جافة من مكانه عند الباب:

ـ والآن ها نحن نتحمل العبء كله... في عالم انتهى فيه كل شيء إلا الديناصورات وذكراك القديمة.

صمت عمر. لم يدافع عن نفسه. جلس منكمشًا أكثر، يديها مفتوحتين على ركبتيه كأنه يستسلم لحكم صامت.

اقتربت نانسي منه ببطء. جلست على الأرض أمامه، وأمسكت بيده برفق. قالت بصوت هادئ لكنه ثابت:

ـ لستَ أنت من دمر الحضارة يا أبي.

ولستَ أنت من وضعنا هنا بمفردك.

لكنك الآن هنا معنا. وهذا يكفي... مؤقتًا.

نظر شريف إلى أخته، ثم إلى أبيه، ثم أدار وجهه نحو الشاشة الخارجية حيث كان الظلام ما يزال كثيفًا. لم يقل شيئًا آخر في تلك الليلة. لكن شيئًا ما كان قد انكسر بينه وبين أبيه... خيط رفيع من الثقة المطلقة التي كانت بينهما منذ الطفولة.

خارج المركبة جاء زئير بعيد مرة أخرى، ثم سكت.

وداخل القاعدة الصغيرة، جلس الأربعة في ضوء أزرق خافت، كل واحد منهم يحمل الآن ثقلًا إضافيًا:

ذنب قديم لم يُغسل،

وسرّ انكشف في أسوأ وقت ممكن،

وعالم لا يرحم أحدًا... حتى الذين يحاولون الاعتراف.

وكانت ساعات الفجر ما تزال بعيدة.

هل نتابع بالفصل الثاني عشر؟

الفصل الثاني عشر

المدينة المدفونة (1)

في الصباح التالي، بعد أن ناموا نومًا متقطعًا مليئًا بالكوابيس، قرر الدكتور عمر أن يبدأ البحث الجاد.

قال وهو يوزع المعدات:

ـ إذا كنا فعلًا في عام 2412 أو ما بعده... فلا بد أن تكون هناك بقايا. مدن، قواعد، مختبرات. شيء دُفن تحت التراب أو الغابات. نبدأ بالقرب من هنا أولًا.

انطلقت السيارتان مرة أخرى، هذه المرة متجهتين نحو سلسلة تلال منخفضة تقع على بُعد كيلومترين غرب الهضبة. كانت المنطقة تبدو عادية في البداية: صخور، أعشاب طويلة، أشجار متفرقة. لكن شريف، الذي كان يراقب قراءات الرادار الأرضي، رفع يده فجأة:

ـ توقفوا... هناك تجويف كبير تحتنا. على عمق سبعة أمتار تقريبًا. شكل منتظم... ليس كهفًا طبيعيًا.

نزلوا جميعًا. بعد ساعة من الحفر الحذر باستخدام الأدوات الروبوتية الصغيرة التي أحضروها من المركبة، انهار جزء من التربة كاشفًا عن حافة معدنية صدئة. كانت بوابة، أو ما تبقى منها، نصف مطمورة، وعليها بقايا كتابة بالإنجليزية والعربية بالكاد تُقرأ:

... مجمع البحوث الإقليمي – القطاع 7

تبادل الأربعة نظرات صامتة. ثم بدأوا في توسيع الفتحة.

كان الدرج الهابط مظلمًا ورائحته عفنة. أضاء أيمن مصابيح الكتف، ونزلوا واحدًا تلو الآخر. بعد عشرين درجة وجدوا أنفسهم في ممر واسع متهالك، جدرانه مغطاة بطبقة سميكة من الغبار والعفن. على الأرض تناثرت قطع من المعدات المحطمة، وكابلات متدلية من السقف مثل أمعاء معدنية.

في الغرفة الأولى وجدوا روبوتًا.

كان بحجم إنسان، من طراز قديم نسبيًا، جالسًا في زاوية وقدماه ممدودتان، رأسه مائل إلى الجانب. عيناه الزجاجيتان السوداوان كانتا مفتوحتين، لكن لا ضوء فيهما. اقترب شريف بحذر ومد يده إلى لوحة صغيرة على صدره. بعد عدة محاولات أصدر الروبوت صوت طقطقة ضعيفًا، ثم خرجت من مكبر صوت تالف كلمات متقطعة مشوهة:

«... النظام... ينهار... الإخلاء... فوري... لا... مزيد من... الوقت...»

ثم سكت إلى الأبد.

في الغرفة التالية وجدوا جهاز تسجيل صوتي قديمًا ما يزال يعمل بطاقة احتياطية ضعيفة. ضغطت نانسي على الزر بأصابع مرتجفة. خرج صوت رجل مبحوح، متقطع، يتحدث العربية بلهجة واضحة من القرن الثاني والعشرين:

«اليوم هو... 14 مارس 2411... آخر رسالة... المدن تسقط واحدة تلو الأخرى... السلاح الذي صنعناه... انقلب علينا... لا أعرف إن كان أحد سيسمع هذا... إذا سمعتم... اهربوا... لا تحاولوا...»

انقطع التسجيل فجأة في صوت انفجار بعيد مسجل.

جلس الدكتور عمر على حافة طاولة مكسورة، يديها ترتجفان خفيفًا. همس:

ـ كانوا يعرفون... كانوا يرون النهاية قادمة.

واصلوا الاستكشاف بحذر. وجدوا غرفًا أخرى: مختبرات محطمة، غرف نوم فارغة، قاعة اجتماعات كبيرة فيها شاشة عملاقة متشققة. على أحد الجدران كانت هناك خريطة قديمة ممزقة للعالم، وعليها علامات حمراء كثيرة فوق معظم القارات.

ثم وجدوا الغرفة الأخيرة في هذا المستوى.

كانت أصغر، وفي وسطها منصة معدنية دائرية متصلة بكابلات سميكة تؤدي إلى أجهزة محطمة. على المنصة بقايا هيكل عظمي بشري، نصف مدفون في الغبار، وإلى جانبه جهاز لوحي محمول مكسور.

رفع شريف الجهاز اللوحي بعناية. بعد عدة دقائق من العمل تمكن من تشغيل الشاشة لثوانٍ قليلة فقط. ظهرت صورة باهتة لامرأة شابة، وعيناها ممتلئتان بالرعب، وهي تقول بسرعة:

«إذا وجد أحد هذا... نحن لم نكن مستعدين. التجربة... أدونيس... كان الخطأ الأكبر. الزمن لا يُثنى دون ثمن. والثمن... كان كل شيء.»

انطفأت الشاشة نهائيًا.

وقف الأربعة في الصمت الخانق لذلك القبو المدفون.
خارج الجدران السميكة كان عالم الديناصورات ينتظرهم.
وداخلها... كانت بقايا الحضارة التي جاؤوا منها تهمس لهم بحقيقة مرعبة:

أن النهاية لم تكن مفاجئة.
وأن أحدًا ما... ربما كان يعرف منذ البداية أن الباب الذي فُتح...
لن يُغلق أبدًا.

هل نتابع بالفصل الثالث عشر؟

الفصل الثالث عشر
التسجيلات

ظلوا داخل المجمع المدفون حتى بعد الظهر.

كان الهواء ثقيلًا ورطبًا، لكن الفضول العلمي والخوف من المجهول كانا أقوى من أي إرهاق. في غرفة التحكم الرئيسية، التي كانت أفضل حالًا من الباقي، وجد شريف خادم بيانات قديمًا ما يزال يحتفظ بجزء من طاقته الاحتياطية. بعد ساعة من العمل الدقيق تمكن من استخراج مجموعة من التسجيلات الصوتية والمرئية المحفوظة في مجلد بعنوان بسيط:

«الأيام الأخيرة – أرشيف القطاع 7»

جلس الأربعة على الأرض المتسخة، وأشغلوا أول تسجيل.

ظهر على الشاشة الصغيرة رجل في الخمسينيات من عمره، يجلس خلف مكتب زجاجي، خلفه نافذة تطل على مدينة مضيئة. كان صوته هادئًا في البداية:

«التاريخ: 3 نوفمبر 2410.

أنا الدكتور كريم عبد الله، مدير مجمع البحوث الإقليمي.

اليوم أُعلن رسميًا فشل مشروع أورفيوس الثاني. المحاولات المتكررة لثني المتصل الزماني-المكاني أدت إلى تموجات غير مسيطر عليها. ننصح بإغلاق كل المواقع التجريبية فورًا...»

انقطع التسجيل فجأة، ثم بدأ الثاني. كانت الصورة مهتزة هذه المرة، والرجل نفسه يبدو أكبر سنًا بعشر سنوات في أسابيع قليلة، شعره أشعث وعيناه محمرتان:

«17 يناير 2411...

التموجات وصلت إلى الغلاف الجوي. اضطرابات مناخية عنيفة. تقارير عن ظهور كائنات... غير مفسرة في أفريقيا وأمريكا الجنوبية. الحكومة تنفي. لكننا نعرف. شيء ما يُسحب من الماضي... أو يُعاد صنعه.»

التسجيل الثالث كان أسوأ. صوت امرأة هذه المرة، تتنفس بصعوبة، والظلام يحيط بها:

«مارس 2411...

المدن تسقط. السلاح البيولوجي الذي طوّرناه للدفاع... انقلب. الهندسة الوراثية العكسية. كانوا يحاولون إعادة أنواع منقرضة لأغراض عسكرية... ديناصورات قابلة للسيطرة. لكن السيطرة ضاعت. المخلوقات تتكاثر أسرع من أي توقعات. والتموجات الزمنية تجعل كل شيء أسوأ. الماضي والمستقبل يختلطان...»

سكت الصوت لحظة، ثم همست المرأة بصوت مكسور:

«إذا سمع أحد هذا في المستقبل... اعلموا أننا نحن من فعلنا هذا بأنفسنا. لم تأتِ نهاية العالم من السماء. خرجت من مختبراتنا.»

التسجيل الأخير كان قصيرًا جدًا. صورة مهتزة لسماء حمراء، وصوت رجل يصرخ وسط فوضى:

«يونيو 2412... آخر يوم.

القطاع 7 يسقط. لا إخلاء. لا إنقاذ.

إلى أي شخص يجد هذا... سامحونا.»

انطفأت الشاشة.

ساد صمت طويل داخل الغرفة المظلمة. لم يجرؤ أحد على الكلام في البداية. كانت نانسي أول من كسر الصمت، صوتها ضعيفًا:

ـ الهندسة الوراثية العكسية...

إذن الديناصورات ليست طبيعية تمامًا. أعادوا صنعها. ثم فقدوا السيطرة.

هز شريف رأسه ببطء، عيناه ما تزالان مثبتتين على الشاشة السوداء:

ـ والتموجات الزمنية... تفسر كيف وصلنا نحن إلى هنا. أدونيس لم يكن مجرد كويكب. كان بقايا تجربة قديمة... أو موقعًا أعيد تفعيله بالخطأ.

نظر الدكتور عمر إلى يديه، كأنهما لم تعودا تخصانه. همس:

ـ مشروع أورفيوس... الذي عملت عليه في شبابي. أعادوه بعد عقود. وجعلوه أكبر وأخطر. ثم دفعوا الثمن كله.

وقف أيمن فجأة، صوته خشن:

ـ إذن نحن لا نواجه عالمًا بدائيًا فقط. نواجه عالمًا صنعته البشرية ثم قتلته. وكل ما يزأر في الخارج... هو خطأنا الجماعي.

خرج من الغرفة دون أن ينتظر ردًا. سمعوا خطواته وهي تبتعد في الممر المظلم.

بقيت نانسي جالسة، تسحب ركبتيها إلى صدرها. قالت بصوت كأنها تحدث نفسها:

ـ ثلاثة أشهر فقط... من نوفمبر إلى يونيو.

انتهت حضارة كاملة في ثلاثة أشهر.

مد عمر يده وأمسك كتف ابنته برفق. لم يقل شيئًا. لم يكن هناك ما يُقال.

خارج المجمع المدفون كان ضوء النهار يميل نحو الغروب مرة أخرى.

وداخل الأرشيف الصامت، كانت أصوات الموتى ما تزال تتردد في آذانهم الأربعة...

تذكّرهم بأن النهاية لم تأتِ فجأة.

وأن البشر... كانوا دائمًا بارعين في صناعة كوابيسهم بأيديهم.

هل نتابع بالفصل الرابع عشر؟

الفصل الرابع عشر

الناجون

في اليوم الثالث بعد اكتشاف المجمع المدفون، رصدت أجهزة الاستشعار حركة بشرية.

كانت نانسي هي من لاحظت الإشارة أولًا. على شاشة الرادار الحراري ظهرت خمس نقاط حمراء تتحرك بحذر شديد بين الأشجار، على بُعد كيلومتر ونصف شمال القاعدة. لم تكن تتحرك كحيوانات. كانت تتوقف، تتفرق، ثم تتجمع مجددًا... سلوك استطلاعي واضح.

قال أيمن فورًا وهو يجهز سلاحه:

ـ بشر. أو ما تبقى منهم.

قرروا عدم الانتظار داخل المركبة. خرج الأربعة معًا، مسلحين، وتقدموا ببطء نحو الموقع. بعد نصف ساعة من التسلل الحذر، رأوا المجموعة.

كانوا خمسة: ثلاثة رجال وامرأتان. أجسامهم نحيلة عضلية، بشرتهم داكنة من الشمس، شعرهم طويل متسخ ومربوط بجلد حيوانات. يرتدون ملابس مصنوعة من الجلود والأقمشة الممزقة، ويحملون رماحًا وأقواسًا بدائية، وإلى جانبهم كلابان هزيلان يشبهان الذئاب. عندما لمح أحدهم طاقم «الرازي-1»، أطلق صيحة قصيرة حادة، ورفع الجميع أسلحتهم فورًا.

توقف الطرفان على مسافة عشرين مترًا.

الصمت كان مشحونًا ك genug.

رفع الدكتور عمر يديه ببطء، مُظهرًا أنه لا يحمل سلاحًا في اللحظة، وقال بصوت واضح وهادئ باللغة العربية أولًا ثم بالإنجليزية:

ـ نحن لسنا أعداء. جئنا من مكان بعيد. لا نريد قتالًا.

نظر الرجال البدائيون بعضهم إلى بعض. ثم تقدم أكبرهم سنًا، رجل في الأربعين تقريبًا، وجهه مليء بالندوب، وعيناه حادتان كشفرات. تحدث بلغة غريبة في البداية، مزيج مشوه من العربية والإنجليزية ولغات أخرى، ثم كرر كلمات مفهومة بصعوبة:

ـ ... سماء... نجوم...؟

أنتم... من فوق؟

أومأ عمر برأسه.

ـ نعم. من فوق. من زمن آخر.

ضحكت إحدى المرأتين ضحكة قصيرة جافة، كأنها سمعت نكتة قديمة. قال الرجل الندوب بصوت أكثر خشونة:

ـ زمنكم مات. الأرض لنا الآن. الديناصورات... والليل... والدم.

ماذا تريدون؟

تدخل أيمن قبل أن يجيب عمر، صوته حازم:

ـ نريد معلومات. وألا نهاجم بعضنا. يمكننا التبادل. طعام، أدوات، معرفة.

هز الرجل رأسه ببطء، ثم أشار برمحه نحو الغابة خلفه:

ـ المعرفة ماتت مع المدن. نحن نعيش. أنتم... رائحتكم غريبة. ملابسكم غريبة. ستجلبون الموت معنا كما جلبه الذين من قبلكم.

ظهرت توترات واضحة بين أفراد المجموعة البدائية. أحد الشباب رفع قوسه ووجهه مليء بالعداوة، بينما همست المرأة الأخرى للرجل الندوب بكلمات سريعة. أخيرًا قال الرجل:

ـ نترككم هذه المرة. لا تقتربوا من نهر الحجر الأسود. هذا مكاننا.

إذا رأيناكم هناك... نقتلكم.

ثم أشار لرجاله وانسحبوا بسرعة مذهلة بين الأشجار، كأنهم لم يكونوا موجودين أصلًا.

ظل طاقم الرازي واقفين في مكانهم وقتًا طويلًا بعد اختفائهم.

قالت نانسي بصوت منخفض:

ـ أحفاد الناجين... إذن لم ينتهِ كل البشر.

هز شريف رأسه وهو لا يزال يراقب الاتجاه الذي اختفوا فيه:

ـ لكنهم نسوا كل شيء. أو رفضوا أن يتذكروا. الحضارة بالنسبة لهم لعنة.

نظر الدكتور عمر إلى الرماح البدائية التي ترك أحدهم أثرها على التراب، ثم قال بهدوء حزين:

ـ الصراع لم يعد فقط ضد الديناصورات.
الآن صار ضد بشر آخرين أيضًا... بشر يشبهوننا ويختلفون عنا في كل شيء.

أضاف أيمن وهو يعيد مسدسه إلى حزامه:

ـ والأخطر... أنهم يعرفون هذه الأرض أفضل منا بمئات السنين.
إذا قرروا أننا خطر... فلن نكون الضيفين غير المرغوب فيهم فقط.
سنكون الفريسة.

عاد الأربعة إلى القاعدة في صمت أعمق من صمت الأيام السابقة.
كانت الشمس تميل نحو الغروب، والظلال تطول.
وفي مكان ما بعيد، كان الناجون الجدد يراقبونهم من بين الأشجار...
يقررون إن كان هؤلاء القادمون من السماء يستحقون البقاء...
أم يجب أن يُمسحوا قبل أن يعيدوا أخطاء الماضي مرة أخرى.

هل نتابع بالفصل الخامس عشر؟

الفصل الخامس عشر
شريف يقود

في صباح اليوم الخامس، طلب شريف أن يقود هو الرحلة الاستكشافية التالية.

كان الطلب مفاجئًا. جلس الأربعة حول طاولة الطعام الصغيرة داخل المركبة، يتناولون إفطارهم من الكبسولات المتبقية، عندما قال الشاب بصوت هادئ لكنه حاسم:

ـ أريد أن أقود «بيتا» اليوم. أستكشف المنطقة شرق النهر حتى سلسلة التلال البعيدة. أحتاج إلى بيانات طبوغرافية أدق... وأماكن محتملة لموارد إضافية.

نظر إليه أبوه فترة طويلة. كان شريف يبدو أكبر من عمره فجأة. الغضب الذي كان في عينيه بعد اعتراف الليلة السابقة قد تحول إلى شيء آخر: تركيز بارد وعزيمة صلبة.

قال عمر أخيرًا:

ـ حسنًا. لكن أيمن يذهب معك. ونانسي تبقى هنا معي لمراقبة القاعدة.

لم يعترض أيمن في البداية. لكن بعد ساعة من السير، عندما توقفا عند حافة غابة كثيفة لفحص قراءات التربة، انفجر الخلاف.

كان شريف يصر على الاقتراب من منطقة «نهر الحجر الأسود» التي حذّر منها الناجون. قال وهو يشير إلى الخريطة الرقمية:

ـ الرادار يُظهر تجاويف كبيرة هناك. قد تكون مجمعات أخرى مدفونة. أو مصادر مياه جوفية أفضل. لا يمكننا تجاهلها بسبب تهديد مجموعة بدائية.

رد أيمن بصوت خشن وهو يضبط سلاحه:

ـ هؤلاء «البدائيون» يعيشون هنا منذ أجيال. يعرفون كل شبر. إذا دخلنا أرضهم بعد التحذير المباشر، فنحن من نبدأ الحرب. وأنا لن أخاطر بحياتنا من أجل بيانات إضافية.

رفع شريف صوته لأول مرة منذ أيام:

ـ حياتنا مهددة أصلًا! كل يوم نبقى هنا نأكل من مخزون محدود ونحتمي بمركبة واحدة. إذا لم نتوسع ونفهم هذا المكان بالكامل، فسنموت ببطء. أنت تفكر كجندي... أنا أفكر كعالم يحتاج إلى معلومات.

اقترب أيمن منه خطوة، عيناه ضيقتان:

ـ الجندي يعرف متى يختار معاركه يا شريف. العالم أحيانًا ينسى أن المعلومات لا قيمة لها إذا كان صاحبها جثة. أولئك القوم لن يترددوا في قتلنا. رأيت عيونهم.

صمت الاثنان لحظة، يتنفسان بصعوبة. ثم قال شريف بهدوء أخطر:

ـ أبي اختار أن يصمت سنوات عن مشروع أورفيوس. وأنت تختار أن نصمت الآن عن نصف هذه الأرض. أنا لن أصمت. سأذهب ولو وحدي.

للحظة بدت الأمور وكأنها ستنهار إلى عنف. ثم تنهد أيمن بعمق، ومرر يده على وجهه، وقال بصوت أجش:

ـ لن تذهب وحدك.

لكننا نتوقف عند أول علامة خطر. وإذا ظهروا... تنسحب فورًا دون نقاش. هذا شرطي.

أومأ شريف. لم يشكر. صعد إلى مقعد القيادة وأدار المحرك.

قضيا الساعات التالية في صمت متوتر. عبروا سهولًا مفتوحة، ثم دخلوا غابة أقدم وأكثف. رصد شريف آثار أقدام بشرية حديثة أكثر من مرة، لكنه لم يتوقف. عند الظهيرة وصلوا إلى تلة تطل على نهر أوسع، مياهه داكنة وصخور سوداء كبيرة على ضفتيه.

كان المكان هادئًا... وهادئًا جدًا.

همس أيمن:

ـ هذا هو نهر الحجر الأسود على الأرجح. لا نزل. نأخذ القراءات من هنا ونعود.

بدأ شريف في تشغيل الأجهزة. فجأة انطلقت صفارة إنذار قصيرة من جهاز الاستشعار الحراري. ظهرت ثلاث نقاط خلفهم مباشرة بين الأشجار.

قال أيمن بهدوء قاتل:

ـ لقد تبعونا منذ البداية.

من بين الأشجار خرج الرجل ذو الندوب ومعه اثنان آخران، رماحهم موجهة نحو السيارة. لم يتكلموا هذه المرة. فقط وقفوا ينظرون.

رفع شريف يديه ببطء، ثم قال بصوت واضح:

ـ نحن نرحل. لا نريد أرضكم.

ظلت العيون تحدق فيهم لثوانٍ طويلة. ثم أشار الرجل الندوب برأسه، وانسحب الثلاثة بصمت كما ظهروا.

ظل أيمن وشريف جامدين في مكانهما دقيقة كاملة بعد اختفائهم. ثم أدار أيمن السيارة بعنف وبدأ العودة بأقصى سرعة آمنة.

بعد كيلومتر كامل قال أيمن دون أن ينظر إلى الشاب:

ـ رأيت؟ كانوا يستطيعون قتلنا من الكمين. لكنهم اختاروا التحذير مرة ثانية.
هذه المرة الأخيرة على الأرجح.

لم يرد شريف فورًا. كان ينظر إلى الأمام، وجهه متصلب. أخيرًا قال بصوت منخفض:

ـ أعرف.
وأنا أيضًا اخترت... ألا أموت اليوم من أجل بيانات.

كانت هذه أول مرة يعترف فيها الشاب، ولو ضمنيًا، أن أيمن كان محقًا في شيء.
وخلفهما كان نهر الحجر الأسود يبتعد، حاملاً معه درسًا قاسيًا:

في هذا العالم، النضج لا يأتي من الاكتشافات العلمية وحدها...

بل من معرفة متى تتراجع لتبقى على قيد الحياة.

هل نتابع بالفصل السادس عشر؟

الفصل السادس عشر

نانسي والعالم الحي

بينما كان شريف وأيمن في رحلتهما المتوترة، بقيت نانسي مع أبيها عند القاعدة.

كانت قد ملّت الجلوس أمام شاشات المراقبة. بعد أن تأكدت أن المحيط هادئ، أخذت حقيبة تحليل صغيرة ومسدسها، وخرجت تمشي بحذر نحو المنحدر الشرقي للهضبة، حيث كانت هناك بركة مياه ضحلة محاطة بأعشاب كثيفة لم يستكشفوها بعد.

كان المكان هادئًا وجميلًا بشكل مخادع. فراشات كبيرة غير مألوفة ترفرف فوق الماء، وأصوات حشرات تشبه الموسيقى الخافتة. انحنت نانسي عند حافة البركة وبدأت تأخذ عينات من الماء والتربة والنباتات. ثم رأت الآثار.

كانت آثار أقدام صغيرة... ليست لديناصور كبير، ولا لبشر. ثلاثة أصابع أمامية، وواحد خلفي، وحجمها intermediate بين الطائر والزواحف. تتبعتها بحذر بين الأعشاب.

بعد عشرين مترًا وجدته.

كان مخلوقًا صغيرًا بحجم كلب متوسط، يقف جامدًا ينظر إليها. جلده ليس حرشفيًا بالكامل... بل مزيج غريب من الحراشف الناعمة والريش البدائي عند الرقبة والذراعين. عيناه كبيرتان ذكيتان، ولونهما ذهبيّان. ذيله طويل وينتهي بريش قصير.

توقفت نانسي تمامًا. شعرت بقلبها يتسارع، لكنها لم ترفع سلاحها.

همست بصوت ناعم جدًا:

ـ مرحبًا...

المخلوق مال برأسه إلى الجانب، كأنما يفهم. ثم اقترب خطوتين حذرتين. رفعت نانسي يدها ببطء، راحة الكف مفتوحة. توقف المخلوق، شم الهواء، ثم لمس أصابعها بخطمه البارد للحظة قصيرة قبل أن يقفز إلى الخلف.

ضحكت نانسي ضحكة مكتومة من الدهشة. أخرجت جهاز التحليل المحمول ووجهته نحوه بحذر. القراءات ظهرت سريعًا على الشاشة الصغيرة، فجعلتها تفتح فمها من الدهشة:

ـ الحمض النووي... غير طبيعي.

تسلسلات جينية مُعدَّلة. علامات واضحة لهندسة وراثية قديمة... مدمجة مع جينات تيروصورات وديناصورات صغيرة منقطة.

همست لنفسها:

ـ أنت لستَ طبيعيًا تمامًا... أليس كذلك؟ أنت بقايا تجاربهم.

المخلوق اقترب مرة أخرى، هذه المرة بثقة أكبر. جلس على بعد متر منها فقط، يراقبها بعينيه الذهبيتين. مدت نانسي يدها مرة ثانية وملمست الريش الناعم عند رقبته. لم يهرب.

قضت معه أكثر من ساعة. كانت تتحدث إليه بهدوء، تشرح له من هي ومن أين جاءت، كأنما يفهم كل كلمة. في لحظة معينة أخرج المخلوق صوتًا صغيرًا يشبه الزقزقة، فردّت عليه بابتسامة.

فجأة رفع رأسه بسرعة ونظر نحو الغابة. بعد ثوانٍ اختفى بين الأعشاب كأنه لم يكن موجودًا.

عادت نانسي إلى القاعدة ووجهها يضيء بشيء لم يظهر عليه منذ انفجار أدونيس. عندما روى لها أبوها ما حدث مع شريف وأيمن عند نهر الحجر الأسود، استمعت بهدوء ثم قالت:

ـ ليس كل ما في هذا العالم يريد قتلنا.

بعضه... غريب مثلي ومثلك. وبعضه ربما ينتظر من يتحدث إليه.

فتح عمر فمه ليعترض على خروجها وحدها، لكنه رأى النظرة في عينيها فتوقف. كانت نظرة شخص وجد خيطًا صغيرًا من الأمل في عالم بدا بلا أمل.

في تلك الليلة، قبل أن تنام، خرجت نانسي للحظة إلى باب المركبة ونظرت نحو البركة البعيدة في الظلام. همست:

ـ إن كنتَ ما زلت هناك... فسأعود.

وفي مكان ما بين الأعشاب، تحت ضوء النجوم الغريب، أصدر المخلوق الهجين صوت زقزقة خافتة...

كأنه يرد عليها.

هل نتابع بالفصل السابع عشر؟

الفصل السابع عشر

أيمن والماضي

في الليلة السادسة، بعد أن نام الجميع نومًا ثقيلًا من الإرهاق، بقي أيمن وحده في نوبة الحراسة الأخيرة قبل الفجر.

كان جالسًا عند باب المركبة المفتوح جزئيًا، مسدسه على ركبته، ينظر إلى الظلام الكثيف الذي يلف الهضبة. الهواء كان باردًا هذه الليلة، والنجوم أكثر وضوحًا من أي ليلة سابقة. فجأة، دون أن يقصد، عاد إليه الماضي كالموجة.

تذكّر رائحة الأوزون المحروق في ممرات المحطة الفضائية العسكرية «أحمس».

تذكّر صوت صفارات الإنذار عندما اخترقت ثلاث سفن قراصنة الدفاعات الخارجية.

تذكّر وجه زميله كريم وهو يدفعه داخل كبسولة النجاة في اللحظة الأخيرة، قبل أن ينفجر الجناح بأكمله.

كان ذلك قبل تسع سنوات. حرب الموارد في حزام الكويكبات. حرب لم تُعلن رسميًا أبدًا، لكنها أكلت مئات الأرواح. أيمن كان وقتها ملازمًا أول في قوات الدفاع الفضائي. بعد تلك الليلة خرج من الخدمة... أو أُخرج. التقارير الرسمية قالت «إصابة نفسية». الحقيقة أنه رفض أن يطلق النار على سفينة مدنية استُخدمت كدرع بشري.

منذ ذلك اليوم وهو يحاول أن ينسى أنه كان جنديًا.

الآن، في هذا العالم المنتهي، كان الماضي يعود ليطالب بحقه.

سمع حركة خفيفة خلفه. التفت بسرعة، ثم استرخى قليلاً عندما رأى الدكتور عمر يقترب حاملًا كوبين من الماء الساخن.

قال عمر وهو يجلس إلى جواره:

ـ لم تستطع النوم أنت أيضًا؟

هز أيمن رأسه. صمتا فترة. ثم قال أيمن بصوت خشن منخفض:

ـ في الحرب... تعلمت شيئًا واحدًا.

الناس يموتون بسرعة عندما يظن القائد أن الرحمة أقوى من الحذر.

أنا لن أكرر ذلك الخطأ هنا.

نظر إليه عمر جانبيًا:

ـ أنت لم تعد في حرب يا أيمن.

ابتسم أيمن ابتسامة مرة:

ـ كل يوم هنا حرب. الديناصورات، الناجون البدائيون، المخزون الذي ينفد، الزمن الذي لا نفهمه. الفرق الوحيد أنني هذه المرة أعرف من أحمي... ولماذا.

بعد صمت آخر قال بصوت أكثر هدوءًا:

ـ شريف يشبهني عندما كنت في عمره. يعتقد أن الشجاعة تعني التقدم دائمًا. نانسي تشبه كريم... ترى الخير حتى في الوحوش. وأنت... أنت تحمل ذنبًا يشبه ذنبي. الفرق أن ذنبي قتل أصدقاء، وذنبك ربما ساعد على قتل عالم كامل.

لم يرد عمر فورًا. شرب رشفة من الماء ثم قال:

ـ إذن ماذا نفعل؟

نظر أيمن إلى الأفق الأسود حيث كانت الغابة تتحرك أحيانًا بظلال غير مرئية، وقال بصوت ثابت كالفولاذ:

ـ نبني جدرانًا أعلى.

نضع قواعد أوضح.

وإذا اقترب أحد أو شيء بما يكفي ليهدد هذه القاعدة... أقتله قبل أن يقتلنا.

بدون تردد هذه المرة.

في الصباح التالي لاحظ الجميع التغيير.

كان أيمن قد استيقظ قبل الجميع بساعتين. حفر خندقًا أوليًا حول جزء من المحيط، زرع المزيد من المستشعرات، ورتب الأسلحة في نقاط محددة داخل المركبة وخارجها. عندما اعترض شريف على «التحويل إلى معسكر عسكري»، رد أيمن بجملة واحدة فقط:

ـ أنا هنا لأحميكم.

إما أن تقبلوا طريقتي... أو تجدوا شخصًا آخر يقوم بالمهمة.

لم يعترض أحد بعدها.

ومن تلك الليلة، صار أيمن الحارس الأكثر شراسة وصمتًا للقاعدة. ينام أقل، يراقب أكثر، ويتحدث أقل. كأنه قرر أن يدفن الجندي القديم إلى الأبد...

ويُخرج من مكانه جنديًا جديدًا أشد قسوة،

في عالم لا يرحم الضعفاء ولا المتأنبين.

هل نتابع بالفصل الثامن عشر؟

الفصل الثامن عشر

المدينة المدفونة (2)

بعد يومين من الاستعدادات الدفاعية التي فرضها أيمن، قرر الأربعة العودة إلى المجمع المدفون... لكن هذه المرة للنزول إلى المستويات الأعمق.

كان شريف قد رصد في القراءات السابقة وجود طوابق سفلية إضافية لم يصلوا إليها. قال وهو يعرض الصور الرادارية:

ـ هناك شيء كبير على عمق ثمانية عشر مترًا. غرفة واسعة جدًا، وجدرانها أكثر سماكة من الباقي. إذا كان هناك أي جهاز متقدم بقي سليمًا... فسيكون هناك.

نزلوا عبر الدرج المتهالك بحذر شديد، أيمن في المقدمة ومسدسه موجه إلى الأمام، ثم شريف، ثم نانسي، وعمر في المؤخرة. بعد أن تجاوزوا المستوى الذي اكتشفوه سابقًا، وجدوا بابًا معدنيًا سميكًا نصف مفتوح، تعلوه علامات حروق وتشققات.

دفعوه بصعوبة. دخلوا إلى ظلام أعمق وأبرد.

كانت الغرفة هائلة.

سقفها مرتفع ككاتدرائية، وجدرانها مغطاة بألواح معدنية داكنة وكابلات سميكة تمتد كالأوردة. في الوسط ارتفعت منصة دائرية ضخمة محاطة بثمانية أبراج معدنية قصيرة، كل برج ينتهي ببلورة كبيرة متشققة. على الأرض تناثرت هياكل روبوتات أكثر تطورًا من التي رأوها فوق، وبعضها ما زال في وضع الوقوف كتماثيل ميتة.

همس شريف وهو يمشي ببطء نحو المنصة:

ـ هذا... مختبر زمني.

أو ما تبقى منه.

اقترب الدكتور عمر من أحد الأبراج، مرر يده على البلورة المتشققة، ثم قال بصوت مبحوح:

ـ نموذج أولي لجهاز الطي الزمني. الجيل الذي جاء بعد مشروع أورفيوس الذي عملت عليه. كانوا يحاولون الانتقال الفعلي لا مجرد التأثير على التموجات.

وجدت نانسي لوحة تحكم جانبية ما تزال تحتفظ بضوء أحمر خافت. بعد دقائق من العمل تمكنت من تشغيل شاشة صغيرة. ظهرت مخططات معقدة، ومعادلات، ثم رسالة تحذيرية متكررة باللون الأحمر:

**تحذير: عدم استقرار البعد الرابع

آخر تجربة: 11 يونيو 2412

النتيجة: انهيار متسلسل

الإخلاء فشل**

وقف الأربعة حول المنصة في صمت يشبه الصمت داخل قبر.

قال أيمن أخيرًا، صوته خشن:

ـ هل يمكن إصلاحه؟

هز شريف رأسه ببطء وهو يفحص الأبراج واحدًا تلو الآخر:

ـ البلورات متشققة، مصادر الطاقة مدمرة، والبرمجيات... فاسدة على الأرجح. لكن النظرية موجودة. والمعادلات هنا. إذا وجدنا طاقة كافية ووقتًا... ربما نستطيع إعادة بناء جزء منه.

نظر عمر إلى المنصة الدائرية لفترة طويلة جدًا، ثم قال بصوت منخفض كأنه يخاف من الكلمات نفسها:

ـ هذا الجهاز... أو أجهزة مثله... هو ما فتح الباب الذي دخلنا منه.

وهو أيضًا ما دمر عالمهم.

إذا لعبنا به... قد نعيد الكارثة. أو نفتح بابًا أسوأ.

اقتربت نانسي من أبيها وأمسكت بذراعه:

ـ أو قد يكون طريقتنا الوحيدة للعودة.

ساد صمت آخر. كانت الغرفة الضخمة تبتلع أصواتهم. من السقف كانت تتجمع قطرات ماء بطيئة تسقط بين الحين والآخر على المعدن فتحدث صوتًا معدنيًا حزينًا.

أخيرًا قال أيمن وهو ينظر إلى المداخل المظلمة حولهم:

ـ أولًا نؤمن هذا المكان.

ثانيًا نقرر.

لكنني أقولها الآن بوضوح: أي تجربة على هذا الجهاز تتم بموافقتنا جميعًا... أو لا تتم.

لأن الخطأ هنا لن يقتلنا نحن فقط.

قد يقتل أي شيء تبقى من الزمن نفسه.

خرجوا من المختبر في ذلك اليوم حاملين معهم صورًا وبيانات أكثر مما توقعوا... وثقلًا جديدًا:

فقد صار بين أيديهم الآن مفتاح محتمل للعودة.

ومفتاح محتمل لنهاية أسوأ مما رأوه حتى الآن.

والاختيار... لم يكن قد حان وقته بعد.

هل نتابع بالفصل التاسع عشر؟

الفصل التاسع عشر

الخيانة الصغيرة

في الليلة الثامنة، وقع ما كان أيمن يخشاه.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما أطلقت المستشعرات الخارجية إنذارًا صامتًا. لم يكن الزئير هذه المرة. كانت حركة بشرية واحدة، خفيفة ومدربة، تقترب من الجهة الغربية للخندق الذي حفره أيمن.

استيقظ الحارس فورًا. أيقظ الآخرين بهدوء قاتل. خلال دقيقة واحدة كان الأربعة مسلحين وينتظرون في الظلام داخل المركبة وخارجها.

رأوا الشاب.

كان أحد أفراد مجموعة نهر الحجر الأسود، الشاب الذي رفع قوسه في اللقاء الأول. يتسلل نحو الصندوق الخارجي الذي تركوا فيه بعض الأدوات وقطع الغيار غير الأساسية. فتح الصندوق بسرعة وبدأ يملأ كيسًا جلديًا ببطاريات ومشابك معدنية وجهاز اتصال ليزري احتياطي.

انتظر أيمن حتى امتدت يد الشاب إلى المسدس الإشعاعي الإضافي... ثم أطلق طلقة تحذيرية فوق رأسه مباشرة.

سقط الشاب على الأرض مذعورًا. خلال ثوانٍ كان محاطًا بالأربعة، أيديهم تمسك أسلحته البدائية والكيس المسروق.

داخل المركبة، تحت الضوء الخافت، وقف الشاب مقيد اليدين ينظر إليهم بكراهية وخوف مختلطين. كان عمره لا يتجاوز العشرين، وجهه نحيل وعيناه مشتعلتان.

قال أيمن بصوت بارد:

ـ كنت ستأخذ سلاحًا. هذا ليس سرقة طعام. هذا استعداد لقتلنا لاحقًا.

هز الشاب رأسه بعنف وتكلم بلغته المشوهة، ثم بكلمات عربية مكسورة:

ـ أنتم... من السماء... تجلبون الموت. أخذتم الأرض... نأخذ منكم... لنعيش.

نظر شريف إلى الكيس المفتوح ورأى البطاريات والأدوات. قال بهدوء:

ـ هذه الأشياء قد تساعدنا على البقاء... أو تساعدهم. ربما كانوا بحاجة حقيقية.

انفجر أيمن:

ـ حاجة؟ كان يستطيع أن يطلب. بدلًا من ذلك اختار السرقة في الظلام. إذا تركناه يذهب الآن، سيعود مع الآخرين ويهاجموننا ونحن نائمون.

قالت نانسي بصوت مرتجف لكنها حازمة:

ـ قتلته الآن يعني أن نبدأ حربًا مع مجموعته كلها. هم يعرفون الأرض ونحن لا. سنخسر.

وقف الدكتور عمر صامتًا فترة طويلة ينظر إلى الشاب المقيد. أخيرًا قال:

ـ الحل الوسط.

نعيد معظم ما سرقه. نحتفظ بالسلاح فقط. نطلق سراحه... لكن نرسل معه رسالة واضحة. أي اقتراب آخر من القاعدة يُعامل كإعلان حرب. ونضاعف الحراسة من الليلة.

اعترض أيمن بشدة:

ـ هذا ضعف. سيعتبرونه خوفًا.

رد عمر بهدوء قاطع:

ـ هذا حساب. نحن أربعة فقط. هم عشرات على الأرجح. قتل واحد الآن يكلفنا أكثر مما يحمي.

بعد جدال حاد استمر ربع ساعة، خضع أيمن على مضض. أُفرج عن الشاب عند حافة الخندق. رُمي الكيس أمامه بعد إفراغه من السلاح والبطاريات الأكثر أهمية. نظر الشاب إليهم نظرة أخيرة مليئة بالذل والكراهية، ثم اختفى في الظلام بسرعة.

عندما أغلق باب المركبة، قال أيمن وهو يفحص سلاحه بعصبية:

ـ راقبوا. قبل أن ينتهي هذا الأسبوع سيعودون. وأنا لن أتردد في المرة القادمة.

جلست نانسي في زاوية، تسحب ركبتيها إلى صدرها. همست:

ـ ربما كان جائعًا فقط... أو خائفًا مثلنا.

هز شريف رأسه ببطء:

ـ في هذا العالم... الخوف والجوع يجعلان الناس يفعلون أشياء أسوأ من السرقة.

والليلة تعلمنا أننا لم نعد الضحايا الوحيدين.

صرنا أيضًا... هدفًا.

خارج المركبة عاد الصمت.

لكن الجميع كان يعرف أن الصمت هذه المرة ليس أمانًا.

هو مجرد هدنة هشة...

قبل أن يعود الناجون من البشر، أو شيء أخطر منهم، ليطالبوا بثمن تلك «الخيانة الصغيرة».

هل نتابع بالفصل العشرين؟

الفصل العشرون

الديناصور الذكي

في اليوم التالي لحادثة السرقة، قررت نانسي العودة إلى البركة الشرقية.

هذه المرة لم تذهب وحدها. أصر شريف على مرافقتها، بينما بقي أيمن وعمر عند القاعدة يضاعفان التحصينات بعد الإنذار الليلي. حملت نانسي معها جهاز تحليل متقدم وبعض قطع اللحم المجفف من المخزون، على أمل أن ترى المخلوق الصغير مرة أخرى.

لكن الذي وجدته كان أكبر بكثير.

كان يقف عند حافة البركة تماماً، نصف جسمه في الماء. مخلوق يصل ارتفاعه عند الكتف إلى مترين ونصف، جلده مزيج معقد من الحراشف الداكنة والريش الرمادي عند الظهر والذراعين. عيناه الذهبيتان الكبيرتان كانتا ذكيتين بشكل يثير القشعريرة، ويحمل على صدره علامة باهتة تشبه رقمًا أو رمزًا محفورًا قديمًا.

توقف شريف فجأة ومد يده يمنع أخته من التقدم أكثر. همس:

ـ هذا ليس صغيرًا... هذا بالغ. وربما مفترس.

لكن نانسي لم تتراجع. اقتربت ببطء شديد، يداها مرفوعتان ومفتوحتان. قالت بصوت هادئ واضح:

ـ أنا نانسي... رأيت صغيرًا مثلك قبل أيام. هل أنت... من نفس النوع؟

المخلوق مال رأسه الضخم إلى الجانب، تمامًا كما فعل الصغير من قبل. ثم أصدر صوتًا منخفضًا يشبه الزمجرة المختلطة بزقزقة. لم يهاجم. اقترب خطوتين ثقيلتين وتوقف على بعد ثلاثة أمتار منها فقط.

أخرجت نانسي جهاز التحليل ببطء ووجهته نحوه. القراءات ظهرت أسرع هذه المرة:

ـ هندسة وراثية متقدمة... أكثر تعقيدًا من الصغير. علامات واضحة على تعديلات في الدماغ تتعلق بالإدراك والتواصل. هذا المخلوق... صُمم ليكون ذكيًا.

همس شريف خلفها، صوته مملوء بالدهشة والخوف معًا:

ـ بقايا تجاربهم العسكرية. ربما وحدة قيادة أو نموذج أولي للسيطرة على القطيع.

مدت نانسي يدها ببطء نحو المخلوق، راحة الكف مفتوحة كما فعلت مع الصغير. هذه المرة لم يلمسها. لكنه خفض رأسه قليلاً ونظر إلى عينيها مباشرة لعدة ثوانٍ طويلة. شعرت نانسي كأن شيئًا ما يمر بينهما... فهمًا بدائيًا أو اعترافًا بوجود الآخر.

ثم أخرجت من حقيبتها قطعة اللحم المجفف ورمتها بهدوء على الأرض بينه وبينها. نظر المخلوق إلى القطعة، ثم إليها، ثم التقطها بحذر مذهل بمخلبه الأمامي وأكلها ببطء.

بعد ذلك حدث شيء لم يتوقعه أحد.

رفع المخلوق رأسه ونظر نحو الغابة الكثيفة شمال البركة، ثم أصدر سلسلة أصوات قصيرة متتالية. بعد أقل من دقيقة ظهر المخلوق الصغير الذي رأته نانسي من قبل، يركض نحوها بثقة ويتوقف عند قدميها.

ابتسمت نانسي ابتسامة واسعة رغم الخوف الذي ما زال يعتريها. همست:

ـ إذن أنتما معًا... عائلة؟ أو وحدة؟

المخلوق الكبير أصدر صوتًا منخفضًا مرة أخرى، ثم ابتعد بضع خطوات نحو الأشجار. توقف ونظر خلفه إليها مباشرة، كأنما ينتظر.

قال شريف بحذر شديد:

ـ يعتقد أنه يدعوكِ إلى مكان ما. هذا خطير جدًا يا نانسي.

ردت هي دون أن ترفع عينيها عن المخلوق:

ـ أو أنه يحاول أن يرينا شيئًا. شيئًا يتعلق بما صنعوه منهم... أو بما تبقى من التجارب.

وقفت لحظة مترددة، ثم التفتت إلى أخيها:

ـ سأتبعه مسافة قصيرة فقط. إذا حدث أي شيء غريب نعود فورًا.

لم يعجبه الأمر، لكنه أومأ. تبع الاثنان المخلوقين بحذر عبر الأشجار لمسافة مئتي متر تقريبًا. هناك، في منخفض صغير محاط بصخور، وجدا بقايا هيكل معدني نصف مدفون... قفص قديم مفتوح، وعليه نفس الرموز التي ظهرت على صدر المخلوق الكبير.

همست نانسي وهي تلتقط صورة:

ـ كانوا يحبونهم هنا... أو يختبرونهم. ثم هربوا أو أُطلقوا عندما انهار كل شيء.

المخلوق الكبير نظر إليها مرة أخيرة، ثم اختفى مع الصغير بين الأشجار الكثيفة بهدوء مدهش.

عاد شريف ونانسي إلى القاعدة وهما يحملان صورًا وقراءات جديدة. عندما روبا ما حدث، تغير وجه الدكتور عمر. قال بصوت منخفض:

ـ إذن لم تكن الهندسة الوراثية العكسية مجرد سلاح. كانوا يحاولون صنع كائنات وسيطة... أذكى من الديناصورات العادية. وربما أقدر على التواصل.

أضاف أيمن وهو ينظر إلى الصور:

ـ وكائنات بهذا الذكاء... إما أن تكون حلفاء محتملين.

أو أخطر شيء واجهناه حتى الآن.

في تلك الليلة، قبل أن تنام، خرجت نانسي مرة أخرى إلى باب المركبة ونظرت نحو البركة البعيدة. همست في الظلام:

ـ شكرًا... لأنك لم تؤذني.

وإذا كنت تفهمني... فأنت لست وحشًا.

أنت مثلنا. ضحية أخرى لهذا العالم المكسور.

وفي مكان ما بعيد تحت ضوء النجوم، جاء صوت زقزقة منخفضة مختلطة بزمجرة خفيفة...

كأنه يرد مرة أخرى.

هل نتابع بالفصل الحادي والعشرين؟

الفصل الحادي والعشرون

الحقيقة الكاملة

في الليلة التاسعة، بعد أن نام شريف ونانسي، طلب الدكتور عمر من أيمن أن يبقى معه قليلاً... ثم أيقظ ابنيه.

كان وجهه شاحبًا أكثر من المعتاد، ويداه ترتجفان خفيفًا وهو يمسك بكوب ماء لم يشرب منه. جلس الأربعة في المقصورة الرئيسية تحت الضوء الخافت الوحيد الذي أبقوه مشتعلاً. قال بصوت أجش كأن الكلمات تخرج من مكان عميق ومؤلم:

ـ حان وقت الحقيقة كاملة. لا مزيد من الأنصاف.

نظر إلى شريف ونانسي مباشرة، ثم بدأ:

ـ مشروع أورفيوس الذي عملت عليه قبل سبعة وعشرين عامًا... لم يُغلق لأنه فشل. أُغلق لأننا نجحنا جزئيًا. نجحنا في إحداث تموج زمني صغير ومسيطر عليه لمدة ثلاث وأربعين ثانية. في تلك الثواني رأينا أشياء... أشياء لم يكن يجب أن نراها. مستقبلًا محتملًا. كوارث. ثم أُمرنا جميعًا بالصمت، ودُفن المشروع، ونُقلت البيانات إلى أرشيف سري للغاية.

توقف ليشرب رشفة ماء، ثم واصل بصوت أهدأ وأثقل:

ـ بعد عشرين سنة... أعادوا فتح المشروع تحت اسم جديد. أورفيوس الثاني. استخدموا بياناتنا الأصلية. طوروها. جعلوا التموجات أقوى وأطول. ثم بدأوا يدمجونها مع برنامج الهندسة الوراثية العكسية... لإعادة الديناصورات كسلاح، ولجعل الانتقال الزمني وسيلة للهروب أو للهجوم. أدونيس كان أحد المواقع الرئيسية للتجارب النهائية.

رفع عينيه إلى أبنائه، وكان فيهما شيء يشبه الموت:

ـ الانفجار الذي نقلنا إلى هنا... لم يكن صدفة. كان النتيجة الأخيرة لسلسلة بدأت بيدي وبأيدي زملائي. التموج الذي أحدثناه في شبابنا كان البذرة. هم سقوها حتى صارت كارثة أكلت عالمًا كاملًا في 2412. وأنا... كنت أحد الذين زرعوا تلك البذرة.

ساد صمت مطبق. نانسي كانت تحدق فيه وعيناها ممتلئتان بالدموع التي لم تسقط بعد. شريف كان جامدًا تمامًا، وجهه أبيض.

أخيرًا قال الشاب بصوت منخفض وقاسٍ:

ـ طوال هذه الأيام... وأنت تعرف أن ذنبك أكبر مما قلت لنا في المرة الأولى؟

أومأ عمر ببطء.

ـ كنت أحاول أن أحميكما من الحجم الكامل. لكن بعد ما رأيناه في المختبر... وبعد التسجيلات... صار الصمت خيانة أكبر من الاعتراف.

وقفت نانسي فجأة وخرجت من المقصورة نحو باب المركبة. لم تبكِ بصوت عالٍ. فقط وقفت هناك تنظر إلى الظلام. تبعها شريف بعد لحظات، لكنه لم يقترب منها. وقف على مسافة مترين وقال بصوت مبحوح:

ـ هو ما زال أبونا.

وما زال معنا في هذا الجحيم.

لم ترد.

داخل المقصورة بقي عمر جالسًا منكمشًا، رأسه بين يديه. قال أيمن بصوت خشن بعد صمت طويل:

ـ الذنب لن يعيد المدن ولن يعيد الموتى.

لكنه قد يقتلنا من الداخل إذا تركناه يأكلنا.

أنت الآن واحد من أربعة يحاولون البقاء.

إما أن تحمل هذا الثقل وتستمر... أو تنهار وتتركنا نحمل عبئين.

رفع عمر رأسه ببطء. كانت عيناه محمرتين، لكن صوته جاء ثابتًا هذه المرة:

ـ سأستمر.

لكنني لن أقود أي قرار يتعلق بجهاز الزمن بعد الآن.

هذا الحق... صار لكم أنتم الثلاثة.

خارج المركبة كانت نانسي ما تزال واقفة. شريف اقترب منها أخيرًا ووضع يده على كتفها بهدوء. لم تتكلم. فقط مالت برأسها قليلًا نحو كتفه.

وفي تلك الليلة، لأول مرة منذ انفجار أدونيس، شعر الدكتور عمر أن اعترافه لم يحرره...

بل جعله أثقل.

وأن العلاقة بينه وبين أبنائه لن تعود أبدًا كما كانت.

حتى لو نجوا جميعًا من هذا العالم.

حتى لو وجدوا طريقًا للعودة.

لأن بعض الحقائق...

عندما تُقال كاملة...

تترك ندوبًا لا تُشفى.

هل نتابع بالفصل الثاني والعشرين (نهاية الجزء الثاني)؟

الفصل الثاني والعشرون

القرار المستحيل

في صباح اليوم العاشر، جمع الدكتور عمر الجميع حول الطاولة الصغيرة داخل المركبة.

كانت الخرائط والصور والبيانات من المختبر المدفون منتشرة أمامهم. على الشاشة الجانبية كانت تعرض مخططات جهاز الطي الزمني بشكل متكرر. جلس الأربعة في صمت ثقيل لعدة دقائق قبل أن يبدأ عمر بالكلام:

ـ وصلنا إلى النقطة التي يجب أن نقرر فيها.

لا مزيد من التأجيل.

ثلاثة خيارات فقط أمامنا... وكل خيار له ثمن.

رفع إصبعه الأول:

ـ الخيار الأول: نحاول إصلاح الجهاز. نستخدم كل معرفتنا وكل الطاقة المتبقية لدينا لنعيد تفعيله ونعود إلى زمننا... أو إلى أقرب نقطة ممكنة منه.

المخاطر: قد نفشل ونموت في المحاولة. أو ننجح فنسبب تموجًا جديدًا يدمر ما تبقى من هذا الخط الزمني... أو خطوطًا أخرى.

رفع الإصبع الثاني:

ـ الخيار الثاني: نترك الجهاز كما هو. ندمره حتى لا يستطيع أحد العبث به مرة أخرى. نبقى هنا. نبني حياة جديدة فوق أنقاض الحضارة. نتحالف مع من يقبل التحالف من الناجين، ونتعلم كيف نعيش مع الديناصورات والهجينات.

المخاطر: نموت هنا يومًا ما، ونُنسى تمامًا. ولا نعرف أبدًا إن كان زمننا الأصلي ما زال موجودًا.

ثم رفع الإصبع الثالث:

ـ الخيار الثالث: نحاول استخدام الجهاز للقفز إلى نقطة زمنية أخرى... ماضٍ أعمق أو مستقبل مختلف. نبحث عن خط زمني لم تحدث فيه الكارثة.

المخاطر: مجهولة تمامًا. قد نصل إلى مكان أسوأ... أو لا نصل إلى أي مكان.

سكت. نظر إلى كل واحد منهم بالدور.

كان أيمن أول من تكلم، صوته حاسم كعادته منذ أيام:

ـ أنا مع التدمير.

هذا الجهاز هو سبب كل شيء. تركه موجودًا يعني أن الكابوس قد يتكرر. نحن لسنا آلهة لنعيد تشكيل الزمن. نحن أربعة بشر محاصرون. نبقى ونقاتل ونعيش بما تبقى لنا.

هز شريف رأسه بعنف:

ـ التدمير يعني الاستسلام. يعني أننا نقبل أن حضارتنا انتهت وأننا مجرد ناجين محظوظين في مقبرة كوكبية. الجهاز فرصة. حتى لو كانت فرصة واحد في المئة... فهي أفضل من الصفر. أنا مع الإصلاح والمحاولة.

التفتت العيون إلى نانسي. كانت صامتة لفترة أطول من الجميع. أخيرًا قالت بصوت هادئ لكنه واضح:

ـ أنا... لا أعرف إن كنا نستحق العودة.

زمننا هو الذي صنع هذا. نحن جزء منه. لكنني أيضًا لا أستطيع أن أتخيل أن أعيش بقية حياتي هنا وأنا أعرف أن هناك بابًا ممكنًا ولم نطرقه.

أقترح... أن نحاول الإصلاح. لكن بحذر شديد. وأي علامة على عدم استقرار... ندمر كل شيء فورًا.

نظر الجميع إلى الدكتور عمر. كان وجهه متعبًا جدًا. قال بصوت منخفض:

ـ أنا تنازلت عن حق القيادة في هذا القرار. لكنني سأقول رأيي:

الذنب الذي أحمله يجعلني أميل إلى التدمير. حتى لا يكرر أحد ما بدأناه. لكنني... أب أيضًا. وأريد لكما فرصة للعودة إلى عالم تعرفانه.

لذلك أصوت مع المحاولة... مع شرط نانسي. أي خطر غير محسوب... نوقف كل شيء ونسوي المختبر بالأرض.

صمتوا جميعًا مرة أخرى.

كان الانقسام واضحًا: أيمن ضد، والثلاثة الآخرون مع المحاولة المشروطة.

أخيرًا قال أيمن وهو يقف:

ـ حسنًا.

ستحاولون.

لكنني سأكون الواقف على الزر. الزر الذي يدمر كل شيء إذا شعرت أن الزمن نفسه بدأ ينهار.

وإذا ضغطت... فلا أحد يحاول إيقافي.

أومأ عمر برأسه ببطء.

ـ متفقون.

خارج المركبة كانت الشمس ترتفع فوق الغابة، تلقي ضوءًا ذهبيًا خادعًا على الهضبة.
داخلها كان القرار قد اتُخذ.

سيحاولون فتح الباب مرة أخرى.
وسيحملون معهم كل ذنوب الماضي وكل مخاوف المستقبل.
وفي اللحظة التي يعمل فيها الجهاز...
سيعرفون إن كانوا يستحقون العودة...
أم أن الزمن نفسه سيرفضهم.

وبهذا ينتهي **الجزء الثاني: البقاء واللغز**.

هل نبدأ الآن **الجزء الثالث** بالفصل الثالث والعشرين؟

الفصل الثالث والعشرون
تشغيل الجهاز

استغرق التحضير أربعة أيام كاملة.

نقلوا كل مصدر طاقة متبقٍ من «الرازي-1» إلى المختبر المدفون. أعاد شريف توصيل الكابلات الرئيسية، واستبدل ثلاث بلورات متشققة بقطع من أنظمة الملاحة في المركبة بعد أن عدّلها بخبرة يائسة. نانسي راقبت كل قراءة بيئية وزمنية لحظة بلحظة. أيمن وقف عند لوحة تفجير مرتجلة ربطها بمتفجرات صنعها من وقود

الصواريخ المتبقي... الزر الأحمر تحت إصبعه باستمرار. أما الدكتور عمر فكان يراجع المعادلات مرارًا وتكرارًا، وجهه شاحب كالورق.

في صباح اليوم الخامس عشر على هذه الأرض، وقف الأربعة حول المنصة الدائرية.

قال شريف بصوت أجش من التوتر:

ـ الطاقة عند 68٪ من الحد الأدنى المطلوب. البلورات مستقرة نسبيًا. البرمجيات... تعمل بوضع طوارئ فقط. هذه أفضل فرصة سنحصل عليها.

نظر عمر إلى أبنائه ثم إلى أيمن. أومأ برأسه.

ـ ابدأ.

ضغط شريف على سلسلة الأوامر. أضاءت الأبراج الثمانية واحدًا تلو الآخر بضوء أزرق باهت. بدأت المنصة تهتز اهتزازًا خفيفًا منتظمًا. امتلأ الهواء بطنين حاد يزداد ارتفاعًا. ثم... حدث شيء لم يكن في أي حساب.

انشق الهواء فوق المنصة.

ليس انفجارًا. بل تمزق شفاف، كزجاج يتشقق في الفراغ. ظهرت من خلاله صور متداخلة وسريعة:

ـ مدينة مضيئة من زمنهم الأصلي، أبراجها تلمع تحت سماء زرقاء.

ـ ثم نفس المدينة تحترق، وناس يركضون بين ألسنة اللهب.

ـ ثم هضبة صخرية فارغة... الهضبة التي يقيمون عليها الآن، لكن في زمن مختلف، وعليها هياكل عظمية بشرية قديمة.

ـ ثم بحر من الديناصورات الهائلة تمشي تحت سماء حمراء.

ـ ثم وجه نانسي نفسها... أكبر سنًا بسنوات، تنظر إليهم من الجانب الآخر بعيون فارغة.

صرخت نانسي وتراجعت. شريف حاول إيقاف التسلسل لكنه فقد السيطرة للحظات. الطنين صار صراخًا معدنيًا. بدأت الجدران تهتز، وسقطت قطع من السقف.

صاح أيمن:

ـ يكفي! سأفجر!

ـ لا! ـ صرخ شريف ـ انتظر... أستطيع...

لكن الصورة الأخيرة التي ظهرت كانت الأكثر رعبًا:

المختبر نفسه... فارغ ومهجور... وعلى المنصة أربعة هياكل عظمية في نفس مواضعهم الحالية.

في تلك اللحظة قطع عمر الطاقة يدويًا من اللوحة الرئيسية. انطفأ الضوء الأزرق فجأة. اختفى التمزق في الهواء كأنه لم يكن. ساد صمت مطبق إلا من صوت أنفاسهم المتسارعة وسقوط بعض الحصى من السقف.

كان شريف جالسًا على الأرض، يديه ترتجفان بعنف وهو ينظر إلى الشاشات الميتة. قال بصوت مكسور:

ـ رأينا... خطوطًا زمنية محتملة. بما فيها خط نموت فيه هنا.

همست نانسي وهي تسند ظهرها إلى الجدار:

ـ ورأيت نفسي... كبيرة. وحيدة. كأني بقيت هنا سنوات طويلة.

وقف أيمن عند الزر الأحمر دون أن يرفع إصبعه عنه بعد. قال بصوت خشن:

ـ هذا كان تحذيرًا. الجهاز غير مستقر. أي محاولة ثانية قد تثبتنا في أحد تلك الخطوط إلى الأبد.

نظر الدكتور عمر إلى المنصة التي صارت الآن داكنة وباردة. كان العرق يسيل على وجهه رغم البرودة النسبية في الغرفة. همس:

ـ التموجات بدأت. حتى هذه المحاولة القصيرة حركت شيئًا.

إذا حاولنا مرة أخرى... قد لا نستطيع الإيقاف.

خارج المختبر، على السطح، كانت السماء قد تغيرت لونها قليلاً نحو الرمادي، رغم أن الساعة كانت منتصف النهار. ورياح غير طبيعية بدأت تهب على الهضبة حاملة معها غبارًا ناعمًا لم يكن موجودًا من قبل.

كان الزمن نفسه... قد بدأ يشعر بهم.

هل نتابع بالفصل الرابع والعشرين؟

الفصل الرابع والعشرون

الهجوم الكبير

جاء الهجوم في الليلة السادسة عشرة... بعد أقل من يومين على المحاولة الفاشلة لتشغيل الجهاز.

كانت المستشعرات هي أول من صرخ. عشرات النقاط الحرارية تتحرك معًا من ثلاث جهات: الشمال والغرب والجنوب. بعضها كبير جدًا... ديناصورات. وبعضها أصغر وأسرع... بشر.

صاح أيمن وهو يوزع الأسلحة:

ـ هذا منسق! الناجون يستخدمون الديناصورات أو يدفعونها نحونا!

اندفع الأربعة إلى مواقعهم. أيمن على السطح العلوي للمركبة مع أقوى المسدسات الإشعاعية. شريف عند الباب الرئيسي يتحكم في الأضواء الكاشفة والألغام الاهتزازية

التي زرعوها. نانسي تراقب الشاشات وتنقل الإحداثيات. عمر يدعم من الخلف ويجهز الإسعافات.

ظهروا أولًا من الغابة الشمالية: ثلاثة تيرانوصورات صغيرة نسبيًا (ربما يافعة) تركض في المقدمة، وخلفها مجموعة من حوالي عشرين رجلاً وامرأة من قبيلة نهر الحجر الأسود، يحملون رماحًا مشعلة وأقواسًا وقطعًا معدنية حادة التقطوها من الأنقاض القديمة.

بدأ القتال في ثوانٍ.

أطلق أيمن طلقات دقيقة أسقطت أول تيرانوصور وهو على بعد أربعين مترًا. الثاني وصل إلى الخندق وانزلق جزئيًا فصار هدفًا سهلاً. لكن الثالث قفز فوق الخندق بمخاطرة جنونية واصطدم بجانب المركبة بقوة هزت كل شيء داخلها.

في الوقت نفسه بدأ البشر يطلقون سهامًا مشتعلة نحو المركبة. احترق جزء من العزل الخارجي. نجح شريف في تفجير لغمين اهتزازيين أرسلا موجة صدمت المجموعة المهاجمة وأسقطت أربعة منهم.

كانت نانسي تصرخ بالإحداثيات:

ـ ثلاثة من اليمين! اثنان يتسللان من الخلف قرب البركة!

قفز أيمن من السطح إلى الجهة الخلفية في اللحظة الأخيرة وأطلق نارًا متصلة. سقط اثنان من المهاجمين، لكن سهمًا مشتعلًا أصاب كتفه الأيسر فاخترق البدلة الواقية. زمجر من الألم لكنه لم يتوقف عن إطلاق النار.

داخل المركبة انفجرت إحدى النوافذ الجانبية الصغيرة تحت ضربة حجر كبير. دخل الدخان والشرر. اندفع عمر ليطفئ النار ببطانية طارئة بينما كانت نانسي تساعد شريف في إعادة توجيه الأضواء.

استمرت المعركة أكثر من عشرين دقيقة بدت كساعات. عندما انسحب المهاجمون أخيرًا، تاركين خلفهم قتلى من الجانبين (ثلاثة من القبيلة وجثة تيرانوصور واحد قرب الخندق)، كانت القاعدة قد تحولت إلى خراب جزئي.

كان جانب المركبة الأيمن محطمًا ومتفحمًا. نظام الطاقة الاحتياطي يعمل بصعوبة. وأيمن يجلس على الأرض خارج الباب، الدم يسيل من كتفه بغزارة بينما يحاول عمر إيقاف النزيف.

نظرت نانسي إلى جثث المهاجمين القريبة وهمست بصوت مكسور:

ـ كانوا يحاولون القضاء علينا قبل أن نفتح الجهاز مرة أخرى... أو قبل أن ندمره. هم خائفون منا مثلما نحن خائفون منهم.

هز شريف رأسه وهو ينظر إلى الدمار حوله:

ـ والديناصورات... استُخدمت كأسلحة. هذا يعني أن القبيلة تعرف كيف توجهها أو تستدرجها.

كان أيمن شاحبًا من فقدان الدم، لكنه ما يزال واعيًا. قال بصوت أجش:

ـ هذا لم يكن الهجوم الأخير.

سيعودون... بعدد أكبر.

أو بشيء أسوأ.

في تلك الليلة لم ينم أحد.

كانوا يصلحون ما يستطيعون إصلاحه تحت ضوء المصابيح الخافتة، بينما كانت رائحة الدم والدخان واللحم المحروق تملأ الهواء.

ولأول مرة منذ وصولهم، شعروا جميعًا أن القاعدة لم تعد آمنة بما يكفي.

وأن الزمن نفسه... لم يعد الخصم الوحيد.

هل نتابع بالفصل الخامس والعشرين؟

الفصل الخامس والعشرون

التضحية

في الليلة التالية للهجوم، بينما كانوا لا يزالون يصلحون الأضرار، جاءت الإشارة الثانية.

كانت أضعف هذه المرة... مجموعة أصغر تتحرك من جهة المختبر المدفون. أدرك أيمن فورًا الخطة: المهاجمون يريدون تدمير الجهاز قبل أن يُستخدم مرة أخرى، أو الاستيلاء عليه.

قال وهو ينهض رغم الجرح في كتفه المغطى بالضمادات:

ـ هم متجهون إلى المجمع. إذا وصلوا إلى المنصة ودمروا البلورات... انتهت أي فرصة للعودة.
أنا أذهب. أنتم الثلاثة ابقوا هنا وأكملوا إصلاح أنظمة الطاقة. سنحتاج كل فولت إذا قررنا المحاولة الثانية.

اعترض الجميع دفعة واحدة. شريف قال:

ـ جرحك لم يلتئم بعد. نذهب معًا.

رد أيمن بصوت قاطع لا يقبل نقاشًا:

ـ أربعة في المختبر يعني ترك القاعدة بلا حماية. أنتم الأمل الوحيد لإصلاح أي شيء. أنا الجندي. هذا دوري.

لم ينتظر موافقة. أخذ مسدسين إضافيين وحقيبة متفجرات صغيرة، وخرج في الظلام نحو التلال الغربية.

وصل إلى مدخل المجمع قبل المهاجمين بدقائق قليلة. اختبأ خلف الصخور عند الفوهة. كانوا سبعة هذه المرة، جميعهم مسلحون برماح وسهام ونوعين من البنادق البدائية المصنوعة من أنابيب معدنية قديمة. عندما اقترب أولهم من الدرج الهابط، أطلق أيمن.

بدأت معركة صامتة وقاسية في الظلام. استخدم أيمن معرفته بالأرض والظلال. أسقط ثلاثة قبل أن يكتشفوا موقعه. ثم اضطر إلى التراجع داخل الممر الأول وهو يطلق النار باستمرار.

في القاعدة كانوا يسمعون أصوات الطلقات البعيدة عبر جهاز الاتصال. صرخت نانسي في الجهاز:

ـ أيمن! انسحب! نأتي إليك!

جاء صوته مبحوحًا ومتقطعًا وسط صوت إطلاق نار:

ـ لا... أحد يأتي.

هم أكثر مما توقعت... لكنني أستطيع إغلاق المستوى الأول عليهم.

أصلحوا الطاقة... بسرعة.

بعد دقائق طويلة من الصمت المتقطع بالطلقات، سمعوا صوت انفجار مكتوم. ثم صوت أيمن مرة أخيرة، أضعف بكثير:

ـ أغلقت... الممر.

المتفجرات... أسقطت السقف خلفهم.

هم محاصرون أو موتى.

لكنني... لا أستطيع العودة بنفسي.

الجرح القديم فتح... وفيه جرح جديد في البطن.

أخبروا... شريف... أن الزر ما زال معي.

إذا حاولوا مرة أخرى... أقدر أن...

انقطع الاتصال.

ركض الثلاثة نحو المجمع في الظلام كالمجانين. وجدوا أيمن عند مدخل المستوى الأول، جالسًا ومسندًا ظهره إلى الجدار، الدم يغطى بطنه وساقه. كان ما يزال يمسك المسدس والزر المرتجل للتفجير. عندما رآهم حاول أن يبتسم ابتسامة باهتة.

ـ تأخرتم... قليلًا.

حاولوا حمله. كان النزيف حادًا. في الطريق إلى المركبة فقد الوعي مرتين. داخل القاعدة عمل عمر ونانسي كالمجانين لإيقاف النزيف وربط الجروح، بينما كان شريف يعيد توصيل أنظمة الطاقة المتبقية بصمت أبيض الوجه.

بعد ساعات، عندما استقر أيمن في سرير طبي مرتجل وهو شبه واعٍ من فقدان الدم والمسكنات، أمسك بيد عمر بقوة ضعيفة وقال:

ـ لا تضيعوا الوقت الذي اشتريته...

إما أن تشغلوا الجهاز قريبًا... أو تدمروا كل شيء كما وعدتكم.

لكن لا تتركوني أموت... وأنا أعرف أنكم ترددتم.

نظر الأربعة بعضهم إلى بعض في الضوء الخافت.

كانت التضحية قد دُفعت.

والوقت الذي اشتراه أيمن بدمه...

كان قصيرًا جدًا.

هل نتابع بالفصل السادس والعشرين؟

الفصل السادس والعشرون

اللحظة الحاسمة

مرّت أقل من تسع ساعات على عودة أيمن جريحًا.

كان ما يزال فاقدًا للوعي معظم الوقت، وجهه شاحبًا كالموت، والنزيف تحت السيطرة بصعوبة. أنظمة المركبة تعمل بالحد الأدنى. الطاقة المتبقية كلها تقريبًا نُقلت إلى المختبر. لم يعد هناك مجال لتأجيل أو تجربة ثانية فاشلة.

وقف الثلاثة الأصحاء حول المنصة الدائرية في الغرفة العميقة. شريف عند لوحة التحكم الرئيسية، نانسي تراقب القراءات الزمنية والبيئية، وعمر يقف بين الأبراج وقد وضع يده على مفتاح الطوارئ اليدوي.

قال شريف بصوت أجش من الإرهاق والتوتر:

ـ الطاقة عند 71٪. هذا أعلى ما يمكننا الوصول إليه. البلورات مستقرة في اللحظة الحالية. إذا بدأنا... فلدينا نافذة قصيرة جدًا قبل أن يعود عدم الاستقرار.

نظر عمر إلى ابنه وابنته. كانت عينا نانسي محمرتين من البكاء والصهر، ووجه شريف متصلبًا كالصخر. أومأ برأسه.

ـ ابدأ.

ضغط شريف على الأوامر النهائية.

أضاءت الأبراج باللون الأزرق مرة أخرى، أقوى هذه المرة. امتلأ الهواء بالطنين المألوف ثم تجاوزه إلى اهتزاز عميق يهز العظام. فوق المنصة بدأ الهواء يتمزق... أبطأ وأكثر وضوحًا من المحاولة السابقة.

ظهر ممر.

لم يكن صورة هذه المرة. كان فتحة حقيقية، بيضاوية الشكل، تتماوج حوافها كالسائل المعدني. من خلالها ظهرت مشاهد متداخلة وسريعة التغير:

سماء زرقاء وأبراج مدنهم الأصلية في لحظة صفاء.

ثم نفس السماء حمراء والمدينة تحت الدخان.

ثم الهضبة التي هم عليها الآن فارغة تمامًا.

ثم مختبر قديم يشبه هذا المختبر وفيه علماء يرتدون ملابس من عصر عمر الشباب.

ثم فراغ أسود لا نجوم فيه.

صرخت نانسي وهي تنظر إلى القراءات:

ـ الاستقرار يتدهور بسرعة! لدينا أقل من أربع دقائق قبل أن ينهار الممر أو يبتلع الغرفة كلها!

كان الطنين يتحول إلى صراخ. بدأت قطع من السقف تسقط. الجدران تهتز. من بعيد جاء صوت انهيار صخري كأن التموج يؤثر حتى على سطح الأرض.

صاح شريف وهو يمسك اللوحة بشدة:

ـ القرار الآن!

ندخل؟

ندمر؟

أم نحاول تثبيت الممر لثوانٍ إضافية؟

نظر عمر إلى الفتحة المتماوجة. رأى فيها للحظة وجه زوجته الراحلة... ثم اختفى. همس:

ـ إذا دخلنا... قد لا نصل إلى زمننا. قد نصل إلى أي من تلك الخطوط.

قالت نانسي والدموع تجري على وجهها هذه المرة دون مقاومة:

ـ وأيمن... لا نستطيع حمله عبر ممر غير مستقر بهذه السرعة. وإذا بقينا... قد ينهار كل شيء فوقنا.

من جهاز الاتصال جاء صوت أيمن الضعيف فجأة، وهو يتحدث من سريره في المركبة بصوت مكسور لكنه واضح:

ـ اسمعوني...

لا تضيعوا الثواني.

إذا كان هناك فرصة حقيقية... خذوها.
أنا... كنت جنديًا. الجنود يُتركون أحيانًا.
فقط... لا تدعوا هذا الشيء يفتح على عالم آخر ويموت فيه المزيد.

انقطع صوته في نوبة سعال.

كانت الثواني تُعد تنازليًا على شاشة نانسي:
03:12
03:11
03:10

وقف الثلاثة أمام الممر المتماوج الذي كان ينبض الآن كقلب محتضر.
القرار الذي أجلوه أيامًا...
صار يجب أن يُتخذ في أقل من ثلاث دقائق.

والزمن نفسه...
كان ينتظر.

هل نتابع بالفصل السابع والعشرين؟

الفصل السابع والعشرون
ثلاثة الطرق

02:58
02:57

كان الممر الزمني ينبض أمامهم كجرح مفتوح في الهواء. الضوء الأزرق يزداد توهجًا ثم يخفت في موجات غير منتظمة. الغرفة تهتز، والغبار يتساقط من السقف كالمطر الجاف.

صرخ شريف وهو يمسك بحافة لوحة التحكم:

ـ ثلاث دقائق إلا ثوانٍ! قولوا الآن!

نظر الدكتور عمر إلى الفتحة، ثم إلى أبنائه، ثم تكلم بصوت غريب الهدوء وسط الفوضى:

ـ أمامنا ثلاثة طرق فقط. لا رابع.

رفع يده وأشار إلى الممر:

ـ الطريق الأول: ندخل الآن. نحاول العودة إلى زمننا الأصلي... أو أقرب نقطة إليه. قد نصل إلى البيت. قد نصل إلى نسخة محترقة منه. قد نموت في العبور. وقد نغير التاريخ بمجرد عودتنا فنخلق كارثة جديدة.

ثم أشار إلى الأرض تحت أقدامهم:

ـ الطريق الثاني: نغلق كل شيء. ندمر الجهاز الآن. نبقى هنا. نحمل أيمن إلى سطح أكثر أمانًا إن استطعنا، ونبني ما نستطيع بناءه من حياة. نموت هنا يومًا ما... لكننا لا نفتح بابًا قد يبتلع غيرنا.

وأخيرًا أشار إلى العمق المتغير داخل الممر:

ـ الطريق الثالث: نستخدم ما تبقى من السيطرة لنوجه الممر إلى نقطة أخرى... ماضٍ أبعد قبل أن يبدأ مشروع أورفيوس أصلًا، أو مستقبل مختلف لم تحدث فيه الحرب. قفزة عمياء. مجهول كامل.

02:41

02:40

كانت نانسي تنظر إلى الأرقام وهي تبكي بصمت. قالت بصوت مكسور:

ـ أيمن ينزف هناك فوق. إذا اخترنا الدخول... لن نستطيع حمله بأمان. الممر غير مستقر. وإذا بقينا... قد ينهار المختبر فوقنا بسبب التموجات التي أطلقناها أصلًا.

شريف كان وجهه أبيض والعرَق يسيل على جبينه. قال بسرعة:

ـ أنا ضد البقاء. البقاء يعني أن كل ما فعلناه وكل من مات من أجل هذا الجهاز ذهب سدى. أريد العودة. حتى لو كانت فرصة ضئيلة.

رد عمر بصوت أثقل:

ـ وأنا أحمل ذنب هذا الباب منذ شبابي. كل جزء مني يريد إغلاقه إلى الأبد حتى لا يُفتح مرة أخرى على أحد. لكنني أب... وأريد لكما حياة غير هذه.

02:18

02:17

من جهاز الاتصال جاء صوت أيمن الضعيف مرة أخرى، متقطعًا بالسعال:

ـ اسمعوا... آخر مرة.

لا تختاروا بسببي.

الجنود يُتركون. هذا معروف.

اختاروا الطريق الذي يجعلكم تنامون... إذا بقي لكم نوم بعد اليوم.

سكت الجهاز.

02:05

02:04

وقفت نانسي بين أبيها وأخيها، تنظر إلى الممر الذي بدأ يتقلص قليلًا من الحواف.
قالت بصوت واضح فجأة، أقوى مما كانت طوال الأيام السابقة:

ـ أنا لا أريد أن أموت هنا وأنا أعرف أننا لم نحاول.

ولا أريد أن أفتح بابًا قد يدمر خطوطًا زمنية أخرى.

لكن... هناك شيء ثالث.

المخلوقات الهجينة. الناجون. هذا العالم المكسور.

إذا تركناه بدون أن نحاول إصلاح شيء... فنحن نكرر خطأ الذين جاؤوا قبلنا: نهرب أو نموت ونترك الفوضى خلفنا.

نظرت إلى الممر ثم إلى الزر الأحمر الذي ربطه أيمن منذ أيام:

ـ أقترح أن نحاول توجيهه... لا إلى زمننا بالضرورة، ولا إلى البقاء. نحاول أن نبحث عن خط لم ينكسر بعد. وإذا فشلنا في التوجيه خلال الخمسين ثانية القادمة... ندمر كل شيء.

01:48

01:47

كان الطنين يتحول إلى صفير مؤلم. الممر يتقلص ويتوسع بشكل متقطع. الوقت ينفد.

وقف الثلاثة ينظرون بعضهم إلى بعض وسط الغبار والضوء الأزرق المتقطع.

ثلاثة طرق.

وثلاثة آراء لم تتفق بعد.

والزمن لم يعد ينتظر أحدًا.

هل نتابع بالفصل الثامن والعشرين (الاختيار)؟

الفصل الثامن والعشرون

الاختيار

01:42

01:41

كان الممر الزمني ينبض أمامهم كجرح حي. الضوء الأزرق يزداد توهجًا ثم يخفت في موجات غير منتظمة، كأن الزمن نفسه يتنفس بصعوبة. الغرفة تهتز، والغبار يتساقط من السقف كالمطر الجاف، وقطع صغيرة من المعدن تسقط بين الحين والآخر على المنصة فتحدث صوتًا حادًا يشبه صفير الرصاص.

صرخ شريف وهو يمسك بحافة لوحة التحكم بأصابع بيضاء من شدة الضغط:

ـ دقيقة واثنتان وأربعون ثانية! قولوا الآن أو يُغلق إلى الأبد!

نظر الدكتور عمر إلى الفتحة المتماوجة. رأى فيها للحظة وجه زوجته الراحلة… ابتسامة خفيفة، ثم اختفت. شعر أن صدره ينقبض حتى كاد يختنق. التفت إلى أبنائه، وصوته جاء غريب الهدوء وسط الفوضى:

ـ أمامنا ثلاثة طرق فقط. لا رابع لها.

رفع يده وأشار إلى الممر:

ـ الطريق الأول: ندخل الآن. نحاول العودة إلى زمننا الأصلي… أو أقرب نقطة إليه. قد نصل إلى البيت. قد نصل إلى نسخة محترقة منه. قد نموت في العبور. وقد نغير التاريخ بمجرد عودتنا فنخلق كارثة جديدة.

ثم أشار إلى الأرض تحت أقدامهم:

ـ الطريق الثاني: نغلق كل شيء. ندمر الجهاز الآن. نبقى هنا. نحمل أيمن إلى سطح أكثر أمانًا إن استطعنا، ونبني ما نستطيع بناءه من حياة. نموت هنا يومًا ما... لكننا لا نفتح بابًا قد يبتلع غيرنا.

وأخيرًا أشار إلى العمق المتغير داخل الممر:

ـ الطريق الثالث: نستخدم ما تبقى من السيطرة لنوجه الممر إلى نقطة أخرى... ماضٍ أبعد قبل أن يبدأ مشروع أورفيوس أصلًا، أو مستقبل مختلف لم تحدث فيه الحرب. قفزة عمياء. مجهول كامل.

01:28

01:27

كانت نانسي تنظر إلى الأرقام على الشاشة وهي تبكي بصمت. الدموع تسيل على خديها دون أن تمسحها. قالت بصوت مكسور لكنه واضح:

ـ أيمن ينزف هناك فوق. إذا اخترنا الدخول... لن نستطيع حمله بأمان. الممر غير مستقر. وإذا بقينا... قد ينهار المختبر فوقنا بسبب التموجات التي أطلقناها أصلًا.

شريف كان وجهه أبيض والعرَق يسيل على جبينه. قال بسرعة محمومة:

ـ أنا ضد البقاء. البقاء يعني أن كل ما فعلناه وكل من مات من أجل هذا الجهاز ذهب سدى. أريد العودة. حتى لو كانت فرصة ضئيلة.

رد عمر بصوت أثقل من الرصاص:

ـ وأنا أحمل ذنب هذا الباب منذ شبابي. كل جزء مني يريد إغلاقه إلى الأبد حتى لا يُفتح مرة أخرى على أحد. لكنني أب... وأريد لكما حياة غير هذه.

01:15

01:14

من جهاز الاتصال جاء صوت أيمن الضعيف مرة أخرى، متقطعًا بالسعال والدم:

ـ اسمعوا... آخر مرة.

لا تختاروا بسببي.

الجنود يُتركون. هذا معروف.

اختاروا الطريق الذي يجعلكم تنامون... إذا بقي لكم نوم بعد اليوم.

سكت الجهاز. لم يعد هناك سوى صفير الممر وصوت الانهيار البطيء للسقف.

01:02

01:01

وقفت نانسي بين أبيها وأخيها. نظرت إلى الممر الذي بدأ يتقلص قليلًا من الحواف، ثم إلى الزر الأحمر الذي ربطه أيمن منذ أيام، ثم إلى وجه أبيها المتعب. قالت فجأة بصوت أقوى مما كانت طوال الأيام السابقة، صوت امرأة لا فتاة:

ـ أنا لا أريد أن أموت هنا وأنا أعرف أننا لم نحاول.

ولا أريد أن أفتح بابًا قد يدمر خطوطًا زمنية أخرى.

لكن... هناك شيء ثالث.

المخلوقات الهجينة. الناجون. هذا العالم المكسور.

إذا تركناه دون أن نحاول إصلاح شيء... فنحن نكرر خطأ الذين جاؤوا قبلنا: نهرب أو نموت ونترك الفوضى خلفنا.

رفعت رأسها ونظرت مباشرة إلى عيني أبيها ثم إلى أخيها:

ـ أقترح أن نحاول توجيهه... لا إلى زمننا بالضرورة، ولا إلى البقاء.

نحاول أن نبحث عن خط لم ينكسر بعد.

خط قبل أن يبدأ مشروع أورفيوس.

قبل أن تُزرع البذرة.

وإذا فشلنا في التوجيه خلال الخمسين ثانية القادمة... ندمر كل شيء.

00:48

00:47

صمت قصير مميت.

ثم أومأ شريف برأسه ببطء، كأن القرار ينتزع منه انتزاعًا:

ـ حسنًا... نحاول.

لكنني أدخل الإحداثيات. أنا أعرف المعادلات أكثر من أي أحد هنا.

نظر عمر إليهما فترة طويلة. رأى في عيني نانسي نفس النظرة التي كانت في عيني أمها يوم قررت أن ترافقه إلى الفضاء رغم كل التحذيرات. رأى في وجه شريف الرجل الذي سيصبحه يومًا... إن بقي حيًا. أخيرًا أومأ:

ـ افعلا.

وأنا أقف على مفتاح الطوارئ. أي علامة على الانهيار... أغلق كل شيء.

00:35

00:34

بدأت أصابع شريف تطير على لوحة التحكم. أدخل سلسلة طويلة من الأرقام والمعادلات التي حفظها من التسجيلات القديمة. الضوء الأزرق على الأبراج تغير لونه قليلاً إلى بنفسجي باهت. الممر ارتجّ ثم استقر للحظة.

ظهر من الجانب الآخر مختبر قديم جدًا... جدرانه بيضاء نظيفة، وعلماء يرتدون ملابس القرن الحادي والعشرين يتحركون بين الأجهزة. وفي وسطهم... رجل شاب ذو شعر أسود فاحم وعينين رماديتين واسعتين.

كان عمر نفسه... قبل سبعة وعشرين عامًا.

شهق الدكتور عمر شهقة مكتومة. مدّ يده تلقائيًا نحو الممر كأنه يريد أن يلمس ذلك الشاب الذي كانه.

00:19

00:18

صرخت نانسي:

ـ الاستقرار ينهار مرة أخرى! الممر يرفض الدخول الجماعي! الطاقة غير كافية لثلاثة!

في تلك اللحظة حدث الشيء الذي لم يحسبه أحد.

الممر تمزّق فجأة من المنتصف. موجة شفافة قوية اندفعت إلى الخارج كيد عملاقة غير مرئية. أمسكت بشريف من صدره وسحبته بقوة وحشية نحو الفتحة.

صرخ عمر:

ـ شريف!

حاول أن يمسك ابنه. لمست أصابعه طرف سترته للحظة واحدة... ثم اختفى الشاب داخل الضوء البنفسجي.

انغلق الممر خلفه كباب يُغلق في وجه الريح.

00:00

ساد صمت مطبق.

فقط صوت تساقط الحصى من السقف، وأنفاس عمر ونانسي المتسارعة، وصوت أيمن الضعيف جدًا من جهاز الاتصال وهو يهمس كأنه يحلم:

ـ ... شريف...؟

انهار الدكتور عمر على ركبتيه أمام المنصة الداكنة. نانسي وقفت جامدة، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، يداها ما تزالان مرفوعتين في الهواء كأنهما ما زالتا تحاولان الإمساك بأخيها.

همست بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ أخذه...

الزمن أخذه وحده.

خارج المختبر، على السطح، كانت السماء قد تحولت إلى لون رمادي غريب، والرياح تحمل غبارًا ناعمًا لم يكن موجودًا من قبل.

وداخل الغرفة العميقة، أدرك الثلاثة الباقون الحقيقة الثقيلة دفعة واحدة:

لم يعودوا أربعة.

وأن الزمن...

اختار من يأخذ معه.

هل ننتقل إلى **الفصل التاسع والعشرين (العبور)** مباشرة، أم تريد تعديلًا على هذا الفصل أولًا؟

الفصل التاسع والعشرون

العبور

لم يكن العبور سقوطًا.

ولا طيرانًا.

كان تمزقًا.

شعر شريف بجسده ينسحب من الداخل أولًا. كأن يدًا غير مرئية أمسكت بكل خلية فيه وسحبتها في اتجاهات مختلفة في آن واحد. صاح، لكن الصوت لم يخرج. الهواء نفسه كان يتمزق حوله.

ثم جاءت الصور.

رأى نفسه طفلًا في الثالثة، يجلس على ركبتي أمه في حديقة مركز الفضاء بالوادي الجديد، وهي تمسك بيده وتقول:

«انظر إلى السماء يا شريف... هناك فوق، هناك مستقبلنا».

ثم قفزت الصورة.

رأى نفسه في الرابعة عشرة، على متن «الرازي-1»، يجادل نانسي حول نسبة الأكسجين في الكويكبات، وأبوه يبتسم من الخلف ابتسامة حزينة.

ثم انكسرت الصورة إلى شظايا.

رأى مدينة 2412 تحترق. أبراج زجاجية تذوب كالشمع، وناس يركضون بين ألسنة اللهب الخضراء الغريبة. رأى الديناصورات الهائلة تمشي في شوارع كانت يومًا مزدحمة بالسيارات الطائرة. رأى رجلاً يشبه أباه كثيرًا يقف على سطح مبنى منهاري ويطلق النار على مخلوق مجنح قبل أن يبتلعه الظلام.

ثم رأى المختبر القديم.

العلماء بالملابس البيضاء.

وعمر الشاب... ذو الشعر الأسود الفاحم والعينين الرماديتين الواسعتين، يقف أمام شاشة ويعطي أمرًا بهدوء:

«ابدأوا التجربة. لا تتراجعوا مهما حدث».

شعر شريف أنه يصرخ في وجه ذلك الشاب:

«توقف! أنت لا تعرف ما الذي ستفعله!»

لكن الصوت لم يصل.

فجأة تغير كل شيء.

وجد نفسه يقف على أرض صلبة. الهواء بارد ونظيف. السقف أبيض مصقول. حوله أجهزة تشبه ما رآه في المختبر المدفون، لكنها جديدة ولامعة. وعلى بعد أمتار قليلة منه، كان عمر الشاب يدير ظهره إليه وهو يراجع معادلات على لوحة شفافة.

نظر الشاب إلى ساعة يده وقال بصوت هادئ:

«الثانية الثالثة والأربعون... التموج مستقر. نغلق».

في تلك اللحظة التفت.

التقت عيناه الرماديتان بعيني شريف.

تجمد الزمن للحظة واحدة.

فتح عمر الشاب فمه كأنه يريد أن يسأل شيئًا... ثم ارتجّ الهواء بعنف. انطفأت الأضواء. انطلقت صفارات الإنذار. وسقط شريف على ركبتيه وهو يشعر أن جسده يتمزق مرة أخرى.

الصورة الأخيرة التي رآها قبل أن يبتلعه الظلام كانت وجه أبيه الشاب... ممتلئًا بالرعب والتعرف في آن واحد.

في المختبر المدفون، كان الصمت أثقل من الجبال.

نانسي ما تزال واقفة في نفس مكانها، يداها مرفوعتان في الهواء كأنهما تمسكان بأخيها الغائب. عمر منهار على ركبتيه أمام المنصة الداكنة، رأسه بين يديه، يتنفس بصعوبة كأنه يغرق.

من جهاز الاتصال جاء صوت أيمن الضعيف، مكسورًا أكثر من أي وقت مضى:

ـ ... ماذا حدث؟

أين شريف؟

رفعت نانسي رأسها ببطء. صوتها جاء فارغًا كصحراء:

ـ أخذه.

الممر أخذه وحده... وتركنا.

حاول عمر أن ينهض. فشلت ركبتاه مرتين قبل أن ينجح. سار بخطوات مترنحة نحو مفتاح الطوارئ، ووضع يده عليه. كان الزر الأحمر ما يزال يلمع تحت الغبار.

همس:

ـ كان يجب أن أدمر كل شيء من البداية...

كان يجب...

قاطعته نانسي بصوت حاد مفاجئ:

ـ لا.

ليس الآن.

إذا دمرت الجهاز الآن... فلن نعرف أبدًا إن كان ما زال حيًا.

أو أين ذهب.

نظر إليها أبوها نظرة طويلة. رأى في عينيها شيئًا جديدًا: ليس خوف الطفلة التي كانت قبل أسابيع، بل صلابة امرأة قررت ألا تنهار بعد.

من السقف سقطت قطعة معدنية كبيرة واصطدمت بالمنصة. اهتزت الغرفة بأكملها. بدأت التموجات الجانبية تؤثر على الهيكل.

قال عمر بصوت أجش:

ـ المختبر ينهار.

علينا أن نخرج... الآن.

أمسكت نانسي بذراعه وساعدته على الوقوف. خرجا يدعمان بعضهما عبر الممرات المظلمة، بينما كانت الجدران تتشقق خلفهما والأتربة تتساقط كالمطر.

عندما وصلا إلى السطح، كانت السماء رمادية تمامًا، والرياح تعصف بالغبار الناعم في دوامات غريبة. المركبة تبدو أصغر وأضعف تحت هذا الضوء الجديد.

دخلا بصعوبة. وجدوا أيمن ما يزال مستلقيًا على السرير المرتجل، وجهه أكثر شحوبًا من الموت، لكنه واعٍ. عندما رأى أنهما اثنان فقط، أغمض عينيه بقوة وعضّ على شفته حتى أدماها.

همس دون أن يفتح عينيه:

ـ أخذ الأفضل منا...

تركنا نحن الخطائين.

جلست نانسي إلى جواره وأمسكت بيده الباردة. عمر وقف عند النافذة ينظر إلى السماء الرمادية التي لم تعد تشبه أي سماء رآها من قبل.

في مكان ما... بعيد جدًا أو قريب جدًا، كان شريف يعبر.

وكان الزمن يبتلعه قطعة قطعة.

ولم يكن أحد يعرف بعد

إن كان سيبقيه...

أم سيمحوه إلى الأبد.

هل ننتقل إلى **الفصل الثلاثين (ما تبقى)** مباشرة؟

الفصل الثلاثون

ما تبقى

مرّت ثلاثة أيام على اختفاء شريف.

انهار المختبر المدفون بالكامل في الليلة الأولى. سمعوا دويّه من القاعدة كأنه رعد قادم من باطن الأرض. عندما ذهبت نانسي وعمر في الصباح التالي، لم يجدوا سوى حفرة واسعة مليئة بالصخور المتكسرة والغبار. لا أثر للمنصة، ولا للأبراج، ولا لأي شيء يمكن إصلاحه أو تدميره مرة أخرى.

كان الباب قد أُغلق... إلى الأبد.

أيمن تحسّن قليلاً. النزيف توقف، والحمى انحسرت، لكنه ظل ضعيفًا ويحتاج إلى أسابيع قبل أن يمشي بشكل طبيعي. نانسي تولت العناية به بصمت متصلب، بينما كان عمر يقضي معظم وقته خارج المركبة، يجلس على حافة الهضبة ويحدق في الأفق كأنما ينتظر شخصًا لن يعود.

في صباح اليوم الرابع، جاءت نانسي وجلست إلى جواره. لم تتكلم في البداية. ثم قالت بصوت هادئ:

ـ هو لم يمت.

أشعر بذلك.

هز عمر رأسه ببطء دون أن يلتفت إليها:

ـ أشعر بالشيء نفسه.

لكن الشعور ليس دليلاً علميًا يا نانسي.

ابتسمت ابتسامة باهتة:

ـ منذ متى صرنا نعتمد على الأدلة العلمية وحدها؟

صمتا. تحتهم امتدت السهول الخضراء، وفي الأفق كانت ظلال التيروداكتيلات تحلق كالعادة. العالم لم يتغير. الديناصورات ما زالت هنا، والناجون المتوحشون ما زالوا يراقبون من بعيد، وال شمس ما زالت تشرق وتغرب على أرض لم تعد تخص البشر.

بعد قليل قال عمر:

ـ سنبني.

ليس لأننا نريد أن ننسى... بل لأننا لا نملك خيارًا آخر.

نحصّن القاعدة أكثر. نزرع. نصطاد بحذر. نحاول التواصل مع الهجينات إن أمكن.

وننتظر... إن كان هناك ما يُنتظر.

أومأت نانسي. ثم أضافت بصوت أخف:

ـ وإذا عاد يومًا...

سيجدنا هنا.

داخل المركبة، فتح أيمن عينيه عندما سمع صوتهما. حاول أن يرفع رأسه فقال بصوت أجشّ لكنه ثابت:

ـ ابنوا ما شئتم.

لكن اجعلوا أحد الجدران أقوى من الباقي.

الجدار الذي يواجه الغابة.

لأن هذا العالم... لن يرحمنا لأننا حزانى.

في مكان آخر... أو في زمن آخر.

فتح شريف عينيه على ضوء أبيض قاسٍ.

كان مستلقيًا على سرير معدني بارد داخل غرفة صغيرة نظيفة. حوله أجهزة طبية قديمة الطراز نسبيًا. وعلى كرسي بجانب السرير جلس رجل في أواخر العشرينيات، شعره أسود فاحم، وعيناه رماديتان واسعتان... نفس العينين اللتين رآهما في المرآة طوال حياته.

كان عمر الشاب يحدق فيه بصمت منذ وقت طويل على ما يبدو.

عندما رأى شريف يفتح عينيه، لم يبتسم. فقط مال إلى الأمام وقال بصوت منخفض وحذر:

ـ من أنت؟

وكيف دخلت إلى المختبر أثناء التجربة المغلقة؟

حاول شريف أن يتكلم. جاء صوته مبحوحًا وغريبًا في أذنيه:

ـ أنا... شريف شوكت.

وابنك... من المستقبل الذي صنعته أنت بنفسك.

تجمد عمر الشاب. لون وجهه تغير. مدّ يده تلقائيًا نحو زر الطوارئ على الطاولة، ثم توقف. نظر إلى ملامح الشاب الطويل أمامه... ملامح كانت تشبهه هو وأمه الراحلة في آن واحد.

همس أخيرًا:

ـ هذا... مستحيل.

ابتسم شريف ابتسامة متعبة ومريرة:

ـ كل شيء أصبح مستحيلاً بعدما لمست أنت وزملاؤك البعد الرابع لأول مرة.

ساد صمت طويل. خارج النافذة الصغيرة كانت سماء 2099 زرقاء صافية، وأبراج مدينة لم تُبنَ بعد تتلألأ في الأفق. عالم ما زال سليمًا... أو يبدو كذلك.

رفع عمر الشاب رأسه ببطء ونظر إلى شريف نظرة مختلفة هذه المرة. نظرة رجل بدأ يدرك أن الثمن قد وصل قبل أن يُدفع.

قال بصوت بالكاد يُسمع:

ـ إذن... ماذا حدث؟

نظر شريف إلى السقف الأبيض، ثم إلى يديه اللتين ما زالتا ترتجفان قليلًا من العبور، ثم أجاب بصوت هادئ كأنه يحكي قصة قديمة:

ـ سأخبرك بكل شيء.

لكن بعد أن تعدني بشيء واحد فقط.

ـ ما هو؟

ـ أن توقف المشروع.

اليوم. الآن.

قبل أن تكبر البذرة التي زرعتها...

وتأكل العالم كله.

على الهضبة الصخرية، تحت سماء 2412 الرمادية قليلاً، وقف الثلاثة الباقون ينظرون إلى الأفق نفسه الذي نظر إليه شريف آخر مرة.

لم يعرفوا إن كان أخوهم ورفيقهم قد نجح في تغيير شيء.

لم يعرفوا إن كان الزمن سيلتفت إليهم مرة أخرى.

كل ما عرفوه هو أنهم ما زالوا هنا.

وأن الأرض... رغم كل شيء... ما زالت تدور.

ابتسمت نانسي فجأة ابتسامة صغيرة حزينة، ومدّت يدها تلتقط زهرة صفراء صغيرة نبتت بين الصخور. همست كأنها تحدث أخاها الغائب:

ـ انتظرنا...

كما وعدناك.

وفي مكان ما بين الأزمنة،

كان باب قد أُغلق.

وباب آخر...

قد فُتح للتو.

تمت الرواية.